سِيَر العظماء

# مكيافيللي

روس كينج

## فيلسوف السلطة






# مكيافيللي

# رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد ابن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدا عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

**مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم**

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت – الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.



# مكيافيللي

## فيلسوف السلطة


تأليف: روس كينج

ترجمة: فايقة جرجس

مراجعة: مجدي عبد الواحد عنبة







**Machiavelli**
**Philosopher of Power**
Ross King

**مكيافيللي**
**فيلسوف السلطة**
روس كينج

**الطبعة الأولى ٢٠٠٨**
ISBN 978 977 6263 21 5


**كلمات عربية للترجمة والنشر**
٤٣ شارع ابن قتيبة، حي الزهور، مدينة نصر، القاهرة ١١٤٧١
جمهورية مصر العربية
**تليفون:** ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
**البريد الإليكتروني:** kalematarabia@kalematarabia.com
**الموقع الإليكتروني:** http://www.kalematarabia.com

**مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم**
**البريد الإليكتروني:** tarjem@mbrfoundation.ae
**الموقع الإليكتروني:** www.mbrfoundation.ae

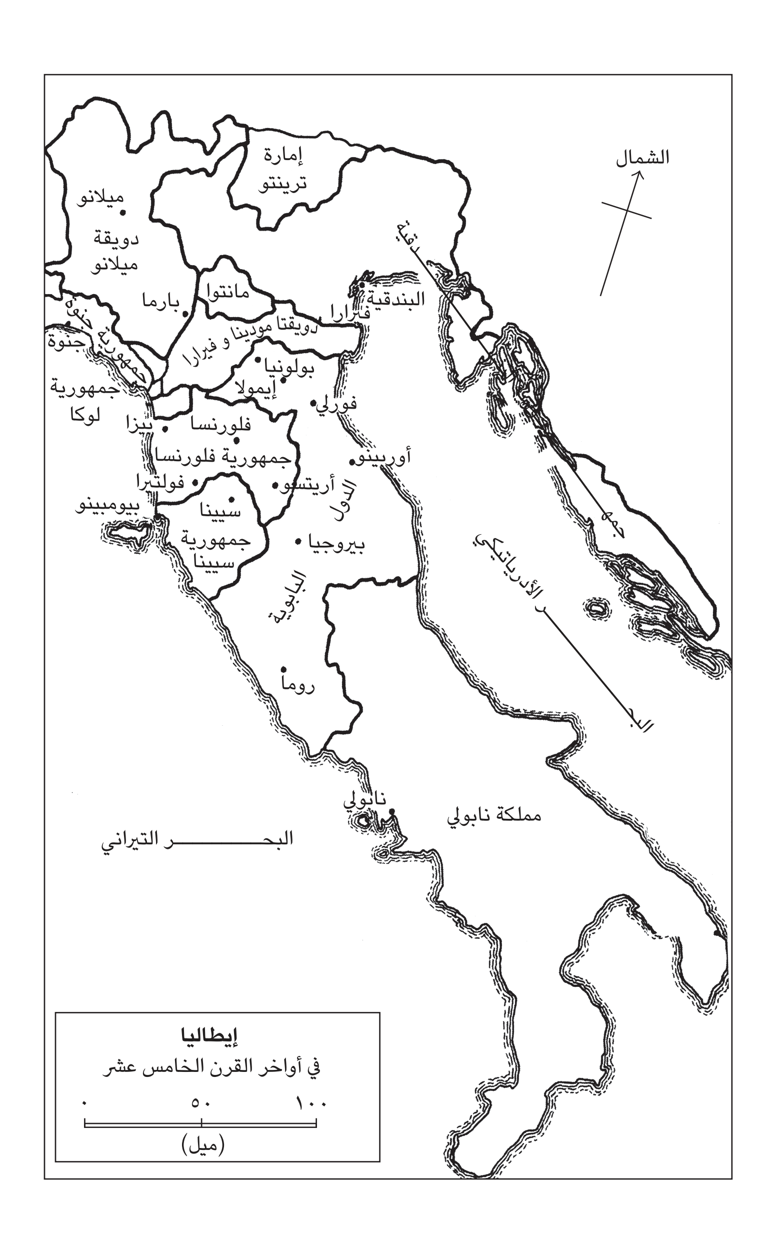
---

كينج، روس
مكيافيللي / روس كينج . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨
٢٨٨ص، ١٣٫٠×١٨٫٠سم
تدمك: ٥ ٢١ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- مكيافيللي، نيقولو، ١٤٦٩–١٥٢٧
٢- السياسيون الإيطاليون
أ- العنوان
٩٢٣٫٢٤٥

---

إهداء

إلى كريستوفر سنكلير-ستيفنسون



الشمال
إمارة ترينتو
ميلانو
دويقة ميلانو
مانتوا
بارما
البندقية
فيرارا
دويقتا مودينا و فيرارا
جنوة
جمهورية جنوة
بولونيا
إيمولا
فورلي
جمهورية لوكا
بيزا
فلورنسا
جمهورية فلورنسا
أوربينو
فولتيرا
أريتسو
بيومبينو
سيينا
جمهورية سيينا
بيروجيا
الدول البابوية
البحر الأدرياتيكي
روما
نابولي
مملكة نابولي
البحـــــــــر التيراني
إيطاليا
في أواخر القرن الخامس عشر
٠ ٥٠ ١٠٠
(ميل)

# الفصل الأول

توغل نوع غريب من الحشرات في أرجاء المروج الواقعة على ضفاف نهر أرنو Arno بفلورنسا في صيف عام ١٤٩٨م. وكان لهذه الأسراب من اليرقات ذهبية اللون وجه إنسان — إذ كان يمكن تمييز أعينها وأنوفها — ويعلو رءوسها هالة ذهبية وصليب صغير. وسرعان ما عُرفت هذه الحشرات باسم «يرقات الأخ جيرولامو».

والأخ جيرولامو هو جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola، الراهب الدومينيكاني الجذاب ذو العينين الخضراوين الذي ينتمي إلى مدينة فيرارا Ferrara. وقد هيمن هذا الراهب على الحياة الروحية والسياسية بفلورنسا على مدار الأعوام الستة السابقة، بعظاته التي كانت تبث الخوف في النفوس من البحيرة المتقدة بالنار والكبريت. غير أن المدينة أفلتت كليةً من قبضة يديه الساحرة بحلول عام ١٤٩٨م، إذ عاقبه البابا ألكسندر السادس بالحرمان الكنسي في صيف عام ١٤٩٧م، وبعد مضى أقل من عام، أُعدم في صباح الثالث والعشرين من مايو/آيار عام ١٤٩٨ في الميدان الرئيسي بالمدينة كعقاب له، كما ورد على لسان أحد المؤرخين بسبب: «إثارة الفتنة في فلورنسا، والترويج لمذهب مخالف لتعاليم المذهب الكاثوليكي.»[١] وقد أُعدم شنقًا على المخلعة، ثم أُحرق جسده في النار التي التهمته إلتهامًا، وبعدها أُلقي الرماد في نهر أرنو

من أعلى جسر بونتي فيكيو، حيث انجرف مع مجرى النهر إلى البقعة التي ظهرت عندها اليرقات بعد ذلك ببضعة أسابيع دون وجود تعليل لظهورها.

ولم يكن سافونارولا هو الضحية الوحيدة في فلورنسا، في شهر مايو/أيار ١٤٩٨، فقد أُعدم كاهنان دومينيكيان إلى جانبه، ولقي آخرون من مؤيديه — الذين أَطلق عليهم المناوئون اسم «البكّائين» Piagnoni — مصائر مريعة بالمثل. وقد لقي أكثر حلفاء سافونارولا تمتعًا بالنفوذ السياسي — فرانشيسكو فالوري Francesco Valori — مصرعه بمنجل، ولقيت زوجته حتفها بعد أن تلقت سهمًا من قوس. وقد فُرضت الغرامات على العشرات من البكّائين، وحُرم بعضهم من التمتع بالحقوق السياسية، ونُفي العديد من رهبان دير سان مارك الذي كان يرأسه سافونارولا. وحتى جرس دير سان مارك — الذي كان يُطلق عليه لقب «البكّاء» La Piagnona لم ينج من العقاب هو الآخر، إذ اُنتزع من برجه وضُرب بالسياط أمام المارة قبل أن يُلقى أيضًا خارج فلورنسا.

وقد طال القصاص أعلى المستويات في الحكومة، إذ بدأ «مجلس السيادة» Signoria — وهو المجلس الحاكم في فلورنسا — حملة تطهيرية فورية لتجريد هؤلاء المتعاطفين مع سافونارولا من مناصبهم الرسمية. فقد طردوا الأعضاء العشر في مجلس «العشر للحرية والسلام» Dieci di Liberta e Pace وهو المجلس الذي كان يضطلع بشئون السياسة الخارجية، ولقي نفس المصير الرجال الثمانية الذين كانوا يشكلون لجنة «الثمانية للمراقبة» Otto di Guardia، وهي اللجنة المنوط بها شئون العدالة الجنائية. وكان من بين هؤلاء الذين طالهم القصاص أيضًا مسئول في المستشارية يُدعى أليساندرو براسيزي Alessandro Braccesi، وقد حل محله مبتدئ في السياسة، يبلغ من العمر تسعة

وعشرين عامًا يُدعى نيقولو مكيافيللي Niccolò Machiavelli. وكان يعد عمر التاسعة والعشرين — العمر الذي يحصل فيه الفرد على أهلية التصويت حينذاك — مبكرًا للغاية على أن يتقلد فيه فرد منصبًا مهمًّا مثل هذا، إذ يظل معظم الشباب في فلورنسا تحت وصاية أبائهم حتى عمر الرابعة والعشرين، ولا يتسنى للبعض بلوغ سن الرشد حتى سن الثامنة والعشرين. لكن مكيافيللي عوض صغر سنه وقلة خبرته بذكائه المتقد وبتعليمه الرائع الذي لا تشوبه شائبة وبالكم الهائل من الطاقة والطموح الذي تمتع به.

ولد مكيافيللي في فلورنسا في الثالث من مايو/أيار عام ١٤٦٩، وكان الابن الأكبر لبرناردو مكيافيللي Bernardo Machiavelli وزوجته بارتولومي Bartolomea. وسيكتب نيقولو فيما بعد: «ولدت فقيرًا، وتعلمت في عمر مبكر ألا أنفق سوى أقل القليل بدلًا من أن أعيش في ترف»[٢]. وينطوي هذا الزعم — مثل العديد من الأشياء التي كتبها — على نوع من المغالاة. فيبدو أن والدته انحدرت من عائلة عريقة وبارزة، وأن والده ينتمي إلى عشيرة ثرية كانت تمتلك على مدار عدة أجيال بقاعًا واسعة من الأرض في التلال المتعرجة التي تكسوها مزارع الكروم جنوب فلورنسا. وفي حقيقة الأمر، لم يكن برناردو مكيافيللي ثريًّا على الإطلاق، فقد وصف نفسه ذات مرة في إحدى الوثائق الضريبية — بصراحة متناهية — أنه «بدون مهنه مربحة»[٣]. لكن هذا لم يمنعه من أن يعيش في منزل كبير في حي سانتو سبيريتو Santo Spirito بفلورنسا بالقرب من جسر بونتي فيكيو، كما أنه اقتنى مزرعة خارج فلورنسا في قرية «سانت أندريا إن بركوزينا» Sant Andrea in Percussina احتوت على بساتين الكروم والتفاح وأشجار الزيتون إلى جانب الماشية. واشتملت ممتلكاته القروية أيضًا على حانة ومحل للجزارة.

أعد برناردو نفسه ليعمل في مهنة قانونية، ثم امتهن — دونما اهتمام أو تسجيل نجاح — مهنة موثق قانوني، ومن الواضح أن صيته قد ذاع في فلورنسا باعتباره عقلية قانونية من الدرجة الأولى. وقد أصبح صديقًا لمستشار فلورنسا، وهو باحث بارز يدعى بارتولوميو سكالا Bartolomeo Scala، الذي وصفه بأنه ضليع في القانون في بحث عنوانه «حوار حول القوانين والأحكام القضائية». غير أن أبرز خصال برناردو هي شغفه بالكتب، إذ جعله التعليم النظامي الذي تلقاه يدرس قواعد اللغة اللاتينية ويتقن الكتابة بخط اليد ويتعلم كيف يصوغ الوصايا ويعتمد عقود الزواج والعقود التجارية. غير أن عقله كان يجول باحثًا في الشئون الإنسانية على نحو يفوق ما قد يوحي به هذا العمل المكتبي، وفي سبعينيات القرن الخامس عشر كان برناردو يهوى الأعمال الأدبية الكلاسكية. ولعل كتاب Dialogue لبارتولوميو سكالا قد أوفاه حق قدره حينما أظهر معرفته ودرايته وهو يستشهد بأقوال مأثورة عن مؤلفين عظام من أمثال أفلاطون وجوستنيان وشيشرون ولاكتانتيوس. وبالطبع اقتنى برناردو في مكتبته الخاصة نسخًا لأعمال بعض الكتاب مثل ليفي Livy، وماكروبيوس Macrobius، التي كان أحيانًا يحصل على بعضها بثمن ليس بالقليل، كما كان يستعير البعض عندما تقصر يده عن شرائه من بعض المؤسسات، مثل مكتبة دير سانتا كروتشيه Santa Croce. وكان من أهم مقتنياته البارزة، نسخة من كتاب «تاريخ روما» الذي كتبه ليفي، وقد حصل عليه مجانًا مقابل تصنيف فهرس بأسماء الأماكن للمطبعة التي طبعته في فلورنسا. وبعد مرور أحد عشر عامًا، في عام ١٤٨٦م، غُلف الكتاب بالجلد وهي المهمة التي جعلته يقوم بمكافأة الشخص الذي جلده بمنحه ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر المعد في ضيعته في الريف.

ولم يكن برناردو وحده الذي بجل الأدب الكلاسيكي والتاريخ القديم، فثمة شغف شديد بثقافة العالم القديم كان قد وضع فلورنسا في الطليعة فيما يخص الأنشطة الفكرية والفنية الجديدة، التي عُرفت فيما بعد بالحركة «الإنسانية» Humanism، التي صرفت الاهتمام العقلي عن التركيز على الأمور الدينية التي كانت يومًا ما هي المبادئ والأفكار الأساسية للأدب الكلاسيكي؛ إلى التركيز على دراسات ذات قدر أكبر من العلمانية. وقد حاول رئيس المستشارية بفلورنسا في الفترة ما بين عامي ١٣٧٥م و١٤٠٦م، وهو باحث يُدعى كولوتشيو سالوتاتي Coluccio Salutati، أن يبرهن أن النصوص القديمة يمكنها أن تعلم الناس دروسًا هامة غير موجودة في الكتاب المقدس فيما يختص بالحياة الأخلاقية والسياسية المعاصرة. وقد تناول هو وأتباعه النصوص القديمة بطريقة عملية، إذ تعاملوا معها في الحقيقة على أنها كتيبات تعليمية تمتلئ بالحكم العملية المتعلقة بالحياة اليومية المدنية والأخلاقية. وقد اعتقدوا أن أعمال اليونانيين والرومانين القدامى يمكنها أن توضح — بين جملة أمور أخرى — أفضل الطرق لتعليم الأطفال، أو لإلقاء الخطب، أو للكيفية التي يمكن بها للمرء أن يصبح مواطنًا صالحًا، أو لكيفية حكم الدولة — أي أنها توضح الأفعال والممارسات التي من شأنها أن تجعل الفرد و«المجتمع» سعداء وينعمون بالرخاء.

وقدم الإنسانيون للأوربيين الذين عاشوا في القرن الخامس عشر نظرة جديدة للعالم ولموضع الإنسان فيه، وكان من بين المصادر التي يستمدون منها إلهامهم ذلك الزعم الذي قدمه الفيلسوف اليوناني بروتاجوراس Protagoras القائل بأن «الإنسان هو مقياس كل شيء.» وقد كانت كل من الحكومة والقوانين وأخلاقيات المجتمع بالنسبة للمسيحيين في العصور الوسطى بأوربا تُفرض من قبل الله، أما بالنسبة لإنسانيي القرن الخامس عشر، فقد رأوا أن كلًّا من الإمبراطوريتين

الرومانية واليونانية من صنع الإنسان، وأن كلاهما يستحق الدراسة المتأنية ويعتبر عرضة للتغيير. ورغم أن العديد من الإنسانيين كانوا مسيحيين ورعين، فإن اهتمامهم كان ينصب على الشئون الإنسانية وليس على القيم السامية. أكد الإنسانيون على وجهة النظر الكلاسيكية فيما يخص الطبيعة البشرية أكثر من تأكيدهم على وجهة النظر المسيحية؛ إذ لم ينظروا للإنسان على أنه فاسد بالخطيئة التي ولد بها وفي حاجة إلي الخلاص من خلال نعمة اللّه، إنما رأوه كائنًا حرًّا ومبدعًا وقادرًا على تحديد مصيره، وقادرًا على السيطرة على كل من المنطق الأعلى والأهواء الدنيا.

ويبدو أن برناردو قد عزم أن ينعم ابنه بفوائد الثقافة الإنسانية المزدهرة في فلورنسا على الرغم من التكاليف التي قد يتكبدها. بدأ نيقولو في تعلم مبادئ اللغة اللاتينية بعد عيد ميلاده السابع بثلاثة أيام على يد معلم محلي يطلق عليه مايسترو ماتيو Maestro Matteo، الذي كان يُلقي دروسه في منزل يقع بالقرب من جسر سانتا ترينيتا Santa Trinità الذي يبعد مسافة قصيرة من منزل آل مكيافيللي. وفي غضون سنوات قليلة، كان مكيافيللي يدرس علم الحساب ويكتب باللغة اللاتينية تحت إشراف معلم أكثر شهرة يُدعى باولو دا رونسيليوني Paolo da Ronciglione. وكان باولو — إلى جانب تمتعه بقدر من السمعة الحسنة — أيضًا صديقًا وزميلًا لأحد كبار الإنسانيين وهو كريستوفرو لاندينو Cristoforo Landino الذي أثرت تفسيراته لكتاب دانتي Dante الكوميديا الإلهية، التي نُشرت عام ١٤٨١م؛ تأثيرًا عارمًا على المسئولين في مدينة فلورنسا — إذ كان الشعراء والباحثون آنذاك يحظون بمثل هذا الاحترام الشديد — فكُوفئ بمنحه قلعة.

ويبدو أن مكيافيللي التحق بعدها بذات المؤسسة التعليمية التي عمل فيها لاندينو Landino نفسه كمدرس للشعر والخطابة، والتي

تحمل اسم استوديو فيورنتينو Studio Fiorentino، وهي جامعة تأسست عام ١٣٤٨م ونُقلت إلى بيزا عام ١٤٧٣م. وفي حقيقة الأمر فإن حياة مكيافيللي الدراسية مجهولة لنا، ولهذا فمن الأسلم أن نفترض أنه حقق نجاحًا في ظل جو الجامعة الفكري المفعم بالحيوية. كان مكيافيللي رفيقًا جذابًا، وربما كان يتمتع بصفات جسدية غير جذابة؛ إذ كان نحيل القوام ذا شفتين رفيعتين وذقن صغير ووجنتين غائرتين وشعر أسود قصير؛ لكن تمتعه بذكاء حاد وميله إلى حياة الصخب والعربدة كان يناقض مظهره المتقشف؛ فمعظم اللوحات التي رُسمت له — وإن كانت بعد مماته — كانت تُبرز ابتسامة ساخرة تداعب شفتيه. ومع كونه قارئًا نهمًا للأدب الكلاسيكي، فقد ترك نفسه أيضًا لممارسات دنيئة مثل لعب القمار ومرافقة الغانيات. وكما ورد على لسان أحد أصحابه «كان يفيض بالجاذبية والظرف.» وادعى آخر أن مزاحه وطرفه كانت تجعل الجميع «ينفجرون ضحكًا». وقد اشتهر باسم مكيا Machia، وهو تورية لكلمة مكيا Macchia التي تعني لطخة أو بقعة، إشارةً إلى الضرر الذي يحدثه بلسانه اللاذع وطُرفه الوقحه.

جعلت الجامعة مكيافيللي يقف على أرض صلبة فيما يخص جوهر الفروع الدراسية الخاصة بمنهج الحركة الإنسانية، مثل البلاغة وقواعد اللغة والشعر والتاريخ والفلسفة الأخلاقية. وكانت قصيدة الفيلسوف الروماني لوكريشيوس Lucretius التي تحمل عنوان «حول طبيعة الأشياء» De rerum natura، وهي المخطوطة الوحيدة التي أُعيد اكتشافها وأُعيدت إلى فلورنسا في عام ١٤١٧م؛ أحد النصوص التي يبدو أنه درسها ببعض الاهتمام، إذ نسخ بخط يده أبيات القصيدة كلها التي بلغ عددها سبعة آلاف وأربعمائة بيت. ويبدو أن مكيافيللي الشاب قد فتنته الحجة الرئيسية للوكريشيوس القائلة بأنه ينبغي

التخلص من الخوف والخرافات الدينية باستخدام العقل والتعمق في دراسة الآليات الخفية للطبيعة.[٤]

انهمك مكيافيللي في دراسة الشعر وكذلك الفلسفة. وقد جُمعت ثلاثة من أعماله التي كتبها إبان شبابه في ديوان شعر مزود بلوحات للرسام ساندرو بوتيشيلي Sandro Botticelli، واشتمل الديوان أيضًا على عشر قصائد من تأليف لورنزو دي ميديتشي Lorenzo de’ Medici الملقب بلورنزو «العظيم»، الحاكم الفعلي لفلورنسا في الفترة ما بين عام ١٤٦٩م — وهو العام الذي وافق مولد مكيافيللي — وحتى مماته عام ١٤٩٢م. وكان المديتشيون أكثر عائلات فلورنسا ثراءً وأعظمها قوةً ونفوذًا. وقد أصبح جد لورنزو، كوزيمو دي ميديتشي Cosimo de’ Medici، وهو ابن لأغنى مصرفي بأوروبا؛ الحاكم المطلق الفعلي لفلورنسا في عام ١٤٣٤م عقب طرد الحكومة الموجودة آنذاك. احتفظت العائلة منذ ذلك الحين بسيطرتها على المدينة لفترة امتدت لستة عقود، إذ كانت تحترم المؤسسات الجمهورية من الناحية الشكلية فقط، لكنها في الواقع كانت تخول لأيدي مؤيديها جميع السلطات.

كان كوزيمو ولورنزو راعيين للفنون يمتلكان حسًّا فنيًّا رفيعًا، وقد اتسما بالسخاء فقاما بتمويل بناء الكنائس والقصور وتقديم الدعم «للأكاديمية الأفلاطونية» الجديدة والشهيرة التي كانت تعقد لقاءاتها خارج فلورنسا في المبنى المعروف باسم فيلا دي كاريجي. أما مدى قوة العلاقة بين مكيافيللي وآل مديتشي، فهي لا تزال مسألة خاضعة للتخمين، إذ يبدو أن مكيافيللي — على الأقل لفترة من الزمن — كان أحد أعضاء جماعة من الإنسانيين ضمت باحثين وفنانين وفلاسفة، وهي جماعة رفيعة المقام، كان من ضمن أفرادها الشاب مايكل أنجلو Michelangelo، وكانت تحظى برعاية لورنزو. وقد أهدى مكيافيللي إحدى قصائده الشعرية إلى جليانو دي ميديتشي، الابن الأصغر للورنزو،

الذي سيصبح في سن المراهقة عندما تُجمع هذه القصائد في أوائل التسعينيات من القرن الخامس عشر. وأيًّا كان نوع العلاقة التي ربطت بين مكيافيللي وآل ميديتشي، فقد انقطعت انقطاعًا كليًّا عام ١٤٩٤م عندما هبت ثورة شعبية ضد بيرو الابن الأكبر للورنزو الذي اتصف بالغرور وعدم الكفاءة (والذي عُرف بالمشئوم)؛ ونفت المديتشين عنوة.

عثر مكيافيللي عندما وصل إلى أواخر العشرينات من عمره على المهنة التي تمكنه من استغلال مواهبه المتعددة، إذ كانت السياسة تجري في عروقه. فعلى مدار القرنين السابقين، تولى العديد من أفراد عائلته مناصب سياسية في فلورنسا، إذ بلغ إجمالي عدد من شغلوا — بين حين وآخر — أرفع منصب مدني وهو منصب «حامل لواء العدالة» من آل مكيافيللي؛ ثلاثة عشر شخصًا، وكان ألمع مَن شغل هذا المنصب هو جيوفاني مكيافيللي Giovanni Machiavelli — أحد من عاصروا دانتي — الذي انتُخب في مناسبات عديدة لتولي هذا المنصب الرفيع، بالرغم من قيامه بقتل كاهن واتهامه بالاغتصاب. أما الاثنان الآخران اللذان صنعا اسمًا لهما من آل مكيافيللي فهما فرانشيسكو Francesco وجيرالمو Girolamo، أبناء عم برناردو من الدرجة الثانية، وكلاهما قُطعت رأسه بسبب معارضة نظام حكم الأقلية الذي شاب عصر كوزيمو دي مديتشي.

ويبدو أن نيقولو انغمس — غير مكترث بالمصير الذي لقيه أقرباؤه — في أمور السياسة في تلك الأشهر المضطربة التي سبقت سقوط سافونارولا. وفي أوائل عام ١٤٩٨م، حاول مكيافيللي الفوز بمنصب السكرتير الأول لمجلس السيادة، وهو المنصب الذي يقدم الدعم الإداري للمجلس الجمهوري الحاكم. فبعد أن رشح نفسه في مواجهة ثلاثة مرشحين، لم ينجح في كسب أصوات كافية، ولعل ذلك يرجع

إلى أوراق اعتماده التي كانت تحمل مواقف معادية لسافونارولا.[٥] لكن رياح التغير حملته سريعًا إلى المنصب، فبعد مُضي ثلاثة أشهر وبمجرد موت سافونارولا واضطهاد البكائين الوحشي؛ حصد مكيافيللي النتائج الطيبة. ففي الثامن والعشرين من مايو/آيار عام ١٤٩٨، رشحه «مجلس الثمانين» — وهو المجلس المُضطلع بمسئولية تعيين سفراء للجمهورية والمسئولين الحكوميين الآخرين — لمنصب هام ورفيع المستوى هو منصب المستشار الثاني. ولأن عملية التعيين كانت تتطلب تصديقًا من «المجلس العظيم للشعب» المكون من ثلاثة آلاف مواطن؛ فقد أُرسل اسمه إليه. ووجد مكيافيللي نفسه مرة أخرى أمام ثلاثة مزاحمين آخرين على الوظيفة، لكنه اُختير هذه المرة، وبالتحديد في التاسع عشر من يونيو/حزيران، ليكمل فترة تولى المنصب التي تبلغ عامين خلفًا للمعزول أليساندرو براسيزي. وهكذا وصل إلى السلطة الرجل الذي سيقترن اسمه فيما بعد بالحكم الغاشم والاستبدادي؛ بناء على الأصوات التي أدلى بها مواطنوه.

وكانت فلورنسا، المدينة التي تحتضن بين جدرانها مايقرب من خمسين ألف مواطن، قد أعادت تشكيل نفسها كجمهورية عقب طرد المديتشيين في عام ١٤٩٤م. وكان المجلس العظيم للشعب هو حجر الزاوية الذي يستند عليه الجمهوريون، وهو مجلس مكون من رجال فلورنسيين تتجاوز أعمارهم التاسعة والعشرين ويتمتعون بحق التصويت على التشريعات وعلى انتخاب الموظفين الذين يقترحهم مجلس السيادة الذي هو الذراع التنفيذي للحكومة. ويتألف مجلس السيادة من ثمانية سادة إلى جانب الرئيس الرسمي للحكومة الذي يسمى «حامل لواء العدالة». وقد صاغ هؤلاء الرجال التسعة سياسة الجمهورية بالتشاور مع العديد من اللجان، مثل مجلس العشر للحرية والسلام، ولجنة الثمانية للمراقبة.

وكان الأمناء في مجلس السيادة يعدون كافة مراسلاتهم — من تقارير وخطابات ومعاهدات.

ولم تكن المستشارية الفلورنسية مجرد حكومة بيروقراطية عادية؛ إذ عمل بها على مدار أكثر من قرن بعض من أبرز العقليات الأدبية في فلورنسا، من شعراء ومؤرخين وباحثين في الأدب اللاتيني واليوناني. ومن ثم، كانت المراسلات الرسمية للحكومة — التي كانت تُصاغ دائمًا باللغة اللاتينية — ذات مستوى أدبي رفيع جدًّا، وكان كولتشيو سالوتاتي هو أول من بادر باستخدام الاقتباسات والتلميحات الكلاسيكية في الوثائق الرسمية. وقد حُوفظ على استمرار مسألة الرفعة الأدبية عن طريق مارسيلو فيرجيلو أدرياني Marcello Virgilio Adriani، الذي أُنتخب كسكرتير أول للمجلس في عام ١٤٩٨م، وهو باحث في الأدب اليوناني، وإلى جانب دوره في المجلس كان يقوم بالعمل كمدرس للشعر والبلاغة في جامعة أستوديو فيورنتينو. وكان أليساندرو براسيزي نابغة أيضًا، فقد ألف ثلاثة دواوين من الشعر باللغة اللاتينية، وترجم إلى اللغة اللاتينية رواية «قصة عاشقَين» Tale of Two Lovers وهي رواية تدور أحداثها حول علاقة حب غير شرعية، وقد ألفها إينياس سيلفيوس بيكولوميني Aeneas Silvius Piccolomini عام ١٤٤٠م، وهو الرجل الذي أصبح فيما بعد البابا بيوس الثاني.

وفي عام ١٤٩٨م، التحق عدد كبير من الأمناء يتراوح ما بين الخمسة عشر والعشرين بالمستشارية، تدرب معظمهم ليكونوا موثقين أو باحثين إنسانيين، وكان نصفهم يعمل تحت إشراف المستشار الأول المعني بالشئون الخارجية. أما الباقون فعملوا مع المستشار الثاني، وهي الوظيفة التي استحدثت لأول مرة عام ١٤٣٧م للمساعدة في التعامل مع كمية المراسلات الهائلة والمتزايدة باستمرار. ولكون نيقولو مكيافيلي المستشار الثاني، كان عليه أن يهتم — على الأقل من الناحية

الشكلية — بالقضايا الداخلية. وكان مجلس السيادة شديد الحرص فيما يتعلق بالإنفاق؛ ولهذا كان يستخدم المستشارين أنفسهم كمبعوثين إلى بعض الجهات الأجنبية مخولين ببعض السلطات، لكن من دون أي من مظاهر الترف كتلك التي يحظى بها السفير الحقيقي. علاوة على ذلك، كان المستشار الثاني يقدم المساعدة الإدارية لمجلس العشر للحرية والسلام، وهو المجلس المنوط به الإشراف على العلاقات الخارجية للجمهورية. وفي واقع الأمر، عُين مكيافيللي رسميًّا كسكرتير لمجلس العشر في غضون شهر من دخوله المستشارية، وبالتحديد في الرابع عشر من يوليو/تموز، وهي الوظيفة التي ألزمته أن يمتطي الجواد ويسافر إلى الخارج مع المبعوثين والسفراء الفلورنسيين، بدلًا من البقاء جالسًا على مكتبه يعد التقارير عن الشئون الداخلية للبلاد. لقد كان نيقولو على وشك أن يرى العالم.

وكان الأجر الذي يتقاضاه ميكافيللي نظير عمله كمستشار ثان هو ١٢٨ فلورين، وهو يعتبر أجرًا كافيًا غير أنه بعيد كل البعد عن الأجور المترفة، باعتبار أن متوسط الدخل السنوي لحرفي ماهر في فلورنسا آنذاك كان يتراوح تقريبًا بين ثمانين وتسعين فلورين. وكان لميكافيللي بعض المساعدين الذين يعملون تحت سلطته، وكان من بينهم صديق له يُدعى بياجيو بواناكوريزي Biagio Buonaccorsi، وموثق يُدعى أوغسطينو فسبوتشي Agostino Vespucci — ابن عم المستكشف أمريجو فسبوتشي Amerigo Vespucci. تكدس كل هؤلاء الموظفين في مكتب ضيق ذي واجهة بحرية بالطابق الثاني من (قصر مجلس السيادة) Palazzo della Signoria، وقد استُخدم هذا المبنى الضخم الذي يشبه الحصن كمقر لحكومة فلورنسا*. وكان يُتوصل إلي هذا

*المبنى المعروف الآن باسم «القصر القديم» Palazzo Vecchio أشير إليه هنا اسم «قصر مجلس السيادة» Palazzo della Signoria، لأن هذا هو الاسم الذي أُطلق عليه إبان فترة تولي مكيافيللي لمنصبه،

المكتب من طريق حجرة أكبر منه، تُعرف باسم قاعة الزنابق Hall of the Lilies، التي كانت تستخدم كحجرة طعام للسادة. وتميزت قاعة الزنابق باحتوائها على الزخارف المنمقة، وكانت تشتمل على مدخل مصنوع من الرخام وسقف مطلي بالذهب. ويتصدر مقدمة الحجرة تمثال داوود David المصنوع من الرخام والذي نحته دوناتيلو Donatello، وتتزين الجدران بلوحات جصية لبعض القديسين رسمها دومنيكو جيرلاندايو Domenico Ghirlandaio المعلم الأول لمايكل أنجلو.

وثمة قطعة فنية أخرى تُزين أيضًا قاعة الزنابق، فقد رُسمت لوحة «عجلة الحظ» Wheel of Fortune، فوق أحد أبوابها نحو عام ١٤٠٠م وإلى جانبها قصيدة شعرية (سونيتا) تحذر المرء من أن يضع ثقته في الآلهة المتقلبة ذات النزوات «فورتونا» Fortuna[٦] (آلهة الحظ الرومانية). وقد بدا أن هذا التحذير جدير بالاعتبار بدرجة كبيرة في الأيام التي عقبت البطش المأساوي بسافونارولا وأنصاره. غير أن الآلهة فورتونا تبسمت لنيقولو مكيافيللي، ففي صيف عام ١٤٩٨م، استعد مكيافيللي ليخطو أولى خطواته نحو أروقة السلطة.

---

وذلك من أجل الدقة التاريخية. وهو لم يأخذ اسمه الحالي «القصر القديم»، إلا بعد أن أقتنى المديتشيون «قصر بيتي» Palazzo Pitti عام ١٥٤٩م، إذ هجرت العائلة «قصر مجلس السيادة» Piazza della Signoria، (الذي استخدموه من قبل كبلاط لهم)، إلى «قصرهم الجديد» الذي يقع على الجانب الجنوبي من نهر أرنو.

# الفصل الثاني

عندما أنهى دومينيكو غيرلانديو مجموعة لوحاته الجصية التي تصور أطوار حياة القديس يوحنا المعمدان على جدران كنيسة «سانتا ماريا نوفيلا» في فلورنسا، وقّع تحتها بخط مزخرف: «في عام ١٤٩٠م، الذي نعمت في غضونه هذه المدينة الأبرع جمالًا المشهورة بانتصاراتها وفنونها ومبانيها؛ بقدر عظيم من الازدهار والرخاء والسلام.» وما كان هذا الازدهار والرخاء والسلام ليدوم، فقد شابت السنوات التي انحصرت بين وفاة لورنزو العظيم في عام ١٤٩٢م ومصرع جيرالامو سافونارولا في عام ١٤٩٨م الاضطراب وتخللتها الفاجعات. فقد توالت مواسم حصاد سيئة، كان من بين مسبباتها العواصف الهوائية العنيفة التي اجتاحت البلاد، مما أفضى إلي حدوث مجاعة. وبحلول ربيع عام ١٤٩٧م، كان الفقراء يتضورون جوعًا في شوارع فلورنسا. وفي صيف نفس العام، صاحب كسوف الشمس العديد من حالات الوفاة من جرّاء الطاعون والحمى بمعدلات تتجاوز المئة نفس يوميًّا. وقام الطاعون بزيارات منتظمة إلى فلورنسا على مدار قرن ونصف من الزمان كانت آخرها خلال الشهر الذي شهد موت سافونارولا. ومما زاد الأمور سوءًا، ظهور مرض جديد عُرف «بالمرض الفرنسي» — وهو مرض الزهري — الذي كان يشوه وجه المصابين به بالبثور ويسبب العمى في بعض الحالات. وكان

هذا المرض — كما ورد على لسان أحد قاطني فلورنسا، فرانشيسكو جوتشيارديني Francesco Guicciardini: «مريعًا للغاية، لدرجة أنه يستحق أن يذكر كأحد أبشع الفاجعات»، لكن لا يزال يتفق الكثيرون من الناس على أن أعظم كارثة حلت بفلورنسا في غضون هذه السنوات — بل بإيطاليا كلها — هي الغزو الفرنسي لشبه الجزيرة على يد الملك تشارلز الثامن.

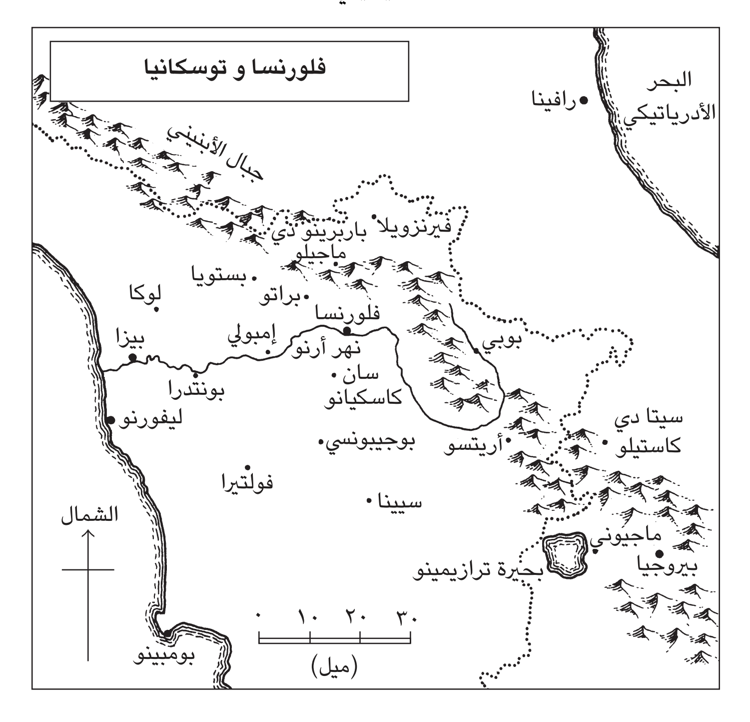
وكانت شبه الجزيرة الإيطالية في تسعينات القرن الخامس عشر مزيجًا يتألف مما ينيف على اثنتي عشرة من الممالك والدوقيات والإقطاعيات ودول المدينة والجمهوريات المستقلة. غير أنه كان يوجد خمس قوى مهيمنة، فكانت القوتان المسيطرتان في الشمال هما دوقية ميلانو التي تحكمها عائلة سفورزا Sforza، وجمهورية البندقية التي اتسعت أراضيها ونفوذها كثيرًا نحو الداخل بعيدًا عن قنواتها وبحيراتها. أما مملكة نابولي — التي حكمها على مدار الخمسين عامًا الماضية أفراد من عائلة أراجون Aragón الملكية — فقد شغلت الثلث الجنوبي من إيطاليا، في حين أن الدول البابوية (دولة الكنيسة) استحوذت على جزء كبير من المنطقة المركزية، فقد كان البابا يحكم ما يقرب من مائتين وخمسين ميلًا من الأراضي الممتدة على شكل خط مائل عبر شبه الجزيرة الإيطالية من روما جنوبًا وحتى بولونيا شمالًا. وخامس قوة رئيسية هي فلورنسا التي ضمت أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع من ريف توسكانيا، كما شملت مدينة بيزا.

وكانت هذه القوى الخمس المهيمنة تنعم إلى حد ما بالسلام فيما بينها منذ عام ١٤٥٤م، عندما أبرم ممثلوهم ميثاق عدم اعتداء يُسمى «ميثاق لودي للسلام». لكن الموازين انقلبت رأسًا على عقب بموت ملك نابولي الملك فيرديناند الأول عام ١٤٩٤م الذي عُرف باسم دون فيرانته Don Ferrante. فلقد سارع ملك فرنسا الشاب الطموح،

تشارلز الثامن، باتخاذ إجراءات تناقض في مضمونها معنى لقبه، إذ كان يلقب «بتشارلز الدمث الخلق». فلكونه ابن حفيد لويس الثاني دوق «أنجو» الذي كان قد تُوج ملكًا على نابولي عام ١٣٨٩م، ادعى ادعاء واهنًا بأحقيته في عرش نابولي، فقد حضه الدوق الجديد لميلانو، لودوفيكو سفورزا Ludovico Sforza المجرد من الأخلاق؛ على الاستمرار في مزاعمه، وكانت النتيجة أن الملك الفرنسي عبر جبال الألب ومعه جيش ينيف على ثلاثين ألف جندي في سبتمبر/أيلول عام ١٤٩٤، مرغمًا كافة السلطات الإيطالية على أن تقر بما إذا كانت تؤيد أحقيته بالعرش أم تؤيد ابن دون فيرانته، «ألفونسو الثاني» الذي كان قد تُوج مؤخرًا على العرش.

في بادئ الأمر أعطى الفلورنسيون تأييدهم لألفونسو، بيد أن منظر الجيش الفرنسي المريع على أرض توسكانيا، الذي استولى بسهولة ويسر (ووحشية) على المعقل الفلورنسي بمدينة «فيفيزانو» سرعان ما عجل باقتلاع ولائهم، أو على الأقل ولاء بيرو المشئوم. تنبأ لورنزو العظيم ذات مرة بأن سقوط حكم أسرة ميدتشي سيكون على يد ابنه الأكبر بسبب طيشه وغطرسته. وسرعان ما تحققت هذه النبوءة إذ قدّم بيرو المذعور — حتى بدون أن يكلف نفسه ويستشير شعبه أو مجلس السيادة — ولاءه لتشارلز إلى جانب العديد من المعاقل الفلورنسية بما فيها معقل بيزا. وقد أثار مثل هذا الاستسلام الخانع سخط شعب فلورنسا، وفي غضون أيام، فر بيرو وسائر عائلته إلى المنفى على صيحات «الشعب والحرية!» لقد حصل الشعب الفلورنسي على حريته لكن ما خسره كان ثمينًا للغاية: لقد خسر مدينة «بيزا».

وتعد هذه الخسارة — بالنسبة للفلورنسين — أكثر العواقب المخزية للغزو الفرنسي إذ حكمت فلورنسا جارتها «بيزا» — مدينة الميناء الثرية — منذ عام ١٤٠٦م. وكان تشارلز الثامن قد وقع في




نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٤٩٤ معاهدة مع الفلورنسيين يعدهم فيها بإعادة بيزا إليهم فور استيلائه على نابولي، لكن ما حدث أن عملية استرداد المدينة انطوت على صعوبة بالغة، ذلك لأن أهل بيزا، كما علق أحد المؤرخين المعاصرين: «كانوا بطبيعتهم ناقمين بشدة على الهيمنة الفلورنسية.» وأعقب ذلك سنوات من المناوشات حاول الفلورنسيون في غضونها استعادة السيطرة على هذه المدينة الثمينة دون طائل. وفي مايو/أيار من عام ١٤٩٨، هزم أهل بيزا الفلورنسين في سان ريجولو San Regolo، وقد عظموا مهانتهم بأسر قائدهم العسكري لودوفيكو دا مارشيانو Ludovico da Marciano.

كان استرداد بيزا من أهم البنود الأساسية في جدول أعمال مجلس السيادة ومجلس العشر لدى دخول نيقولو مكيافيللي المستشارية في عام ١٤٩٨م. وقد بلغت المشكلة أوجها نظرًا لأن فلورنسا لم يكن لديها جيش خاص بها، ولذلك كان عليها أن تدفع لآخرين، شأنها في ذلك شأن الدول الإيطالية الأخرى، إذ كانت تدفع لجنود مرتزقة من الدول الإيطالية الأصغر والأفقر ليقاتلوا في معاركها. وكان هؤلاء المرتزقة الذين عُرفوا باسم «قادة المرتزقة» شرًّا لا بد منه بالنسبة للمدن التجارية مثل فلورنسا التي يعكف مواطنوها على الاهتمام بالتجارة بدلًا من الانخراط في الأمور الحربية. وكمنت إحدى المشكلات الكبرى في أن الرجال الذين يقاتلون مقابل الحصول على أكياس الدوكات، وليس بدافع حب بلدهم، لا يُتوقع منهم أن يحاربوا ببسالة بالنيابة عن مؤجريهم. وكان السلوك المتكاسل والمراوغ والمنافق لقادة المرتزقة يفوق كل وصف.

وفي ظل إجبار المشئوم لودفيكو دا مارتشيانو على البقاء سجينًا في إحدى قلاع بيزا، بات الفلورنسيون بحاجة إلى شخص آخر يقود هجماتهم العسكرية. فعينوا في يونيو/حزيران عام ١٤٩٨م قائد مرتزقة ذائع الصيت يُدعى باولو فيتيلي Paolo Vitelli، كقائد عسكري جديد لهم، وهو ابن لقائد عسكري سيئ السمعة من مدينة سيتا دي كاستيلو الواقعة بإقليم أومبريا. ورغم أن فيتيلي كان يبلغ من العمر سبعًا وثلاثين عامًا فحسب، فإنه عمل بالجندية في جميع أنحاء إيطاليا منذ أن ذاق طعم الحرب لأول مرة وهو في الثالثة عشرة من عمره. وكان فيتيلي — شأنه شأن الكثير من القادة المرتزقة — محاربًا تقليديًّا إذ كان يُفضل استخدام البلطة والسيف عن استخدام البندقية. وقد اشتهر بقيامه بفقء عيون وقطع أذرع من يأسرهم من الرجال المسلحين بالبنادق وذلك لشدة كراهيته للوسائل الحديثة المستخدمة في الحروب،

إذ يقوم جنود مشاة وضيعون باصطياد الفرسان الذين يمتطون الجياد باستخدام أسلحة نارية.

وبعد مرور شهر من تعيين فيتلي، استعان مجلس السيادة بمرتزق ثانٍ يُدعى جاكوبو دابيانو Jacopo d'Appiano — حاكم مرفأ بيومبينو Piombino وجزيرتي إلبا Elba و«مونت كريستو» Monte Cristo بتوسكانيا. وكان جاكوبو البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، قائد مرتزقة محنك أيضًا، فقد حارب من قبل لصالح كل من نابولي وميلانو وسيينا، بل إنه حارب في عام ١٤٩٦م ضد فلورنسا نفسها لصالح بيزا. وقد استأجر الفلورنسيون جاكوبو نظير خمسة وعشرين ألف دوكات، وهو يعد مبلغًا ضخمًا بالنظر إلى إجمالي عوائد المدينة السنوية من الرسوم والضرائب الأخرى غير المباشرة التي تصل إلي مئة وثلاثين ألف دوكات. لكن جاكوبو لم يكن قانعًا بشروط هذا العقد — فقد أراد خمس آلاف دوكات أخرى — وعليه كُلف مكيافيللي في مارس/آذار عام ١٤٩٩م بالسفر إلى مدينة بونتدرا Pontedera التي تبعد عشرين ميلًا خارج بيزا، حيث يُخيم جاكوبو. وكانت التعليمات التي أُعطيت له من قبل مجلس السيادة من النوع الذي سرعان ما سيألفه على نحو يدعو للأسف. كان عليه أن يؤكد لجاكوبو ميل فلورنسا لتحقيق مطلبه ولكن دون أن يعبر عن ذلك بكلمات صريحة أو محددة، ومن ثم لا يكون على مجلس السيادة أي التزامات فعلية كي تفي بها نحوه.

وكانت هذه هي البعثة الدبلوماسية الأولى لمكيافيللي، لذا كان عليه أن يستجمع كافة مهاراته البلاغية. وكان والد مكيافيللي قد استعار من بائع أدوات كتابية فلورنسي يُدعى «زانوبي» عام ١٤٨٠م واحدة من أشهر الدراسات على الإطلاق التي كُتبت حول فن الخطابة وهي كتاب شيشرون «في الخطابة» De oratore. وسواء قرأ نيقولو هذه النسخة تحديدًا أم لا (إذ كان مكيافيللي حينئذ في الحادية عشرة من

عمره)، فحتمًا درس هذا العمل الشهير فيما بعد في مرحلة متقدمة من تعليمه. ويصف شيشرون في هذا العمل السمات المتنوعة التي تميز الخطيب الجيد وكذلك التمرينات العملية التي يمكن أن يوظفها الخطيب كي يحسن قدراته؛ مثل: تدريب صوته، واستخدام الإيماءات، والتمكن من الحقائق، وتحسين الذاكرة، وكسب رضا الجمهور، وهلم جرًّا. وكانت الحكومة الفلورنسية تقدر البراعة الفائقة في الخطابة، مثل تلك التي يصفها شيشرون، آيما تقدير (كما هو الحال في مفاوضاتهم مع جاكوبو دابيانو) إذ كانت دائمًا تفضل أن تمنح حلفاءها كلمات بدلًا من أفعال، فقد كان أدرياني Adriani — المستشار الأول — أستاذ بلاغة في الجامعة. ولقد بدا أن قدرات مكيافيللي في الفن الرفيع للاقناع — مثل مهاراته في التحدث والكتابة — لم تضمن له وظيفته الهامة في المستشارية فحسب بل ضمنت له أيضًا هذه المهمة الحساسة كسفير لاسترضاء لورد بومبينو العنيد.

بيد أن تدريب مكيافيللي على البلاغة أَعدَّه بالكاد لهذه البعثة إلى المخيم العسكري الذي يقع خارج بيزا في بقعة ريفية مستنقعية محفوفة بمخاطر الفيضانات. واعتاد مكيافيللي سريعًا امتطاء الجياد لمسافات طويلة كي يبرر للقادة العسكريين الطماعين الذين ينقادون بالمال أكثر من الكلمات؛ يبرر لهم طرق مجلس السيادة المقتصدة في الإنفاق. ولم يكن من الغريب، أن تئول أولى خبرات مكيافيللي مع قائد مرتزقة إلى نتائج غير مرضية، إذ كان جاكوبو سياسيًّا ماكرًا أفضى تعنته وعناده ذات مرة إلى عقابه بالحرمان الكنسي من قبل أحد البابوات الساخطين عليه. ومع ذلك، آلت المهمة إلى نجاح إلى حدٍ كبير، فقد ظل جاكوبو على عهده بحماية فلورنسا وشن الهجمات على بيزا.

بدا مكيافيللي وقد أبلى بلاء حسنًا، فبعد مضي أشهرٍ قلائل، وفي احتدام حرارة الصيف، بُعث في مهمة مماثلة تقريبًا. فقد اتجه إلى

مدينة فورلي Forlì، التي تبعد خمسين ميلًا شمال شرق فلورنسا، في الجانب الآخر من جبال الأبينيني Apnnines، تاركًا وراءه كما يقول: «عبأه الثقيل من المهام» في المستشارية. وكانت مهمته هذه المرة هي إقناع قائد مرتزقة ثالث هو «أوتافيانو رياريو» Ottaviano Riario كي يقبل تجديد عقده (الذي كان قد انتهى في يونيو/حزيران السابق) دون أي زيادة في الأجر المتفق عليه من قبل. وكان على مكيافيللي أن يتفاوض بالأحرى مع «كاترينا سفورزا» Caterina Sforza — والدة المرتزق الشاب، الذي لم يبلغ العشرين من عمره بعد، والذي كان في ميلانو في ذلك الوقت. وكان إرسال مكيافيللي ليتعامل مع شخصية مرعبة للغاية مثل هذه يعد دليلًا على ثقة مجلس السيادة بمستشارهم الثاني الشاب.

كانت كاترينا سفورزا بطبيعتها شخصية مخيفة على نحو يفوق شخصية جاكوبو. ورغم أنها لم تكن تبلغ من العمر سوى ست وثلاثين عامًا، فإنها كانت شخصية أسطورية ذات تاريخ مأساوي عاصف. وكاترينا هي الابنة غير الشرعية لدوق ميلانو «جاليزو ماريا سفورزا» Galeazzo Maria Sforza، الذي اتصف بالوحشية والفسق، والذي اغتاله المتآمرون عام ١٤٧٦م على أعتاب سلم كاتدرائية ميلانو. وقد جعلها الموت القاسي الذي ألم بأولئك المقربين إليها، إذ كانت في الثالثة عشر من عمرها حينئذ، تعتاد الأمر بدرجة رهيبة. فقد تزوجت كاترينا في سن الخامسة عشرة من «جيرولامو رياريو» Girolamo Riario، ابن شقيق البابا سيكستوس الرابع Sixtus IV وأمير مدينتي فورلي وإيمولا. وقد أُغتيل جيرولامو عام ١٤٨٨م، وكذلك زوجها الثاني «جياكومو فو» Giacomo Feo بعد ذلك بسبع سنوات. أما زوجها الثالث «جيوفاني دي ميدتشي» Giovani de’ Medici، الذي يمت بصلة قرابة إلى لورنزو العظيم، فقد توفي عام ١٤٩٨م وإن كان لأسباب

طبيعية. ولم تفلح هذه المآسي في أن تُثبط معنويات كاترينا التي لُقبت بلقب «المرأة المحاربة»، إذ اشتهرت بجرأتها التي تصل إلى حد الوقاحة. فلقد تحدت قاتلي زوجها الأول بأن فرت منهم وحدها إلى قلعة فورلي، وعندما هددها القتلة بقتل صغارها إذا لم تذعن لهم، ظهرت على سور القلعة رافعة تنورتها إلى أعلى مظهرة أعضاءها التناسلية، ثم قالت ساخرة (كما ورد في الأسطورة): «لا يزال بمقدوري إنجاب أطفال غيرهم!» كما أظهرت كاترينا مؤخرًا أسلوبها الخاص في الجرأة التي تصل إلى حد الوقاحة المهلكة عندما حاولت قتل البابا ألكسندر السادس Alexander VI، فقد أرسلت إليه مجموعة من الخطابات ملفوفة في قطعة من القماش كانت ملفوفة من قبل حول رأس إحدى ضحايا الطاعون.

اشتهرت كاترينا بجمالها، قدر اشتهارها بتظاهرها بالشجاعة فكانت ذات شعر أشقر ضارب إلى الحمرة وبشرة بيضاء ناعمة. وكانت تحتفظ بكتاب سردت فيه وصفات العناية بالبشرة (وأيضًا وصفات لتحضير السموم بطيئة المفعول). وقد خلدها الفنان الفلورنسي «لورنزو دي كريدي» Lorenzo di Credi بأن رسمها، وقد تمتع التجار في فورلي بنشاط تجاري مزدهر من وراء بيع لوحات صغيرة لوجهها. وبالعودة إلى المستشارية، نجد صديق مكيافيللي، «بياجيو بوناكورزي» يشتهي أن يحصل على واحدة من هذه الصور، فقال له: «أود أن تبعث لي مع ردك صورة لجلالتها على رقعة من الورق، فهي شائعة الانتشار هناك» ثم استطرد محذرًا إياه: «لفها ولا تطوها لأن الطي قد يتلفها.»

ولم تفتن المرأة المحاربة مكيافيللي بدرجة كبيرة. لقد أمضى قرابة الأسبوعين في فورلي، حيث كانت المفاوضات تتأرجح بين التقدم والتراجع، لأن كاترينا كانت تماطل مرة تلو الأخرى كي تكسب المزيد

من الوقت للتمعن في الأمر، مدعية أنها لا تملك الجنود أو البارود، ثم تعود وتغير أي اتفاق في اللحظة الأخيرة، فلم تُعجَب كاترينا بالكلمات المنمقة الجوفاء التي كانت حجر الزاوية الذي تستند عليه معظم شئون الدبلوماسية الفلورنسية. وفي آخر الأمر، ضاق مكيافيللي ذرعًا من عدم إحراز أي تقدم، وقبل عودته إلى فلورنسا في مستهل أغسطس/آب عبّر علانية عن ضجره «بالكلمات والإيماءات» (وهو أسلوب أقل تهذيبًا وأدبًا من ذلك الذي أوصى به شيشرون). بيد أن الأمر بدا عند هذه النقطة كما لو كانت فلورنسا مشرفة على أن تنجح في عدوانها على بيزا، سواء بمساعدة كاترينا وجنودها وبارودها أم بدونهم.

وتلقى مكيافيللي خطابًا من بياجيو بوناكورزي قبل عودته إلى فلورنسا بأيام قلائل يقول فيه: «إن سير حملتنا على بيزا يزداد تحسنًا أكثر فأكثر.» لم تكن هذه الكلمات مجرد تفكير نابع من رغبة شخصية، فمنذ تعيين باولو فيتلي قائدًا عسكريًّا لفلورنسا، منذ عام مضى، وهو يشن حملة غير حاسمة من المناوشات على أهل بيزا، حملة شهدت تبادل الغارات على القرى، وسلب الماشية، وإهلاك المحاصيل الزراعية، وحرق القلاع. لكنه أخيرًا مع قدوم شهر أغسطس/آب قام بتغيير طريقته وشنَّ حملة مباشرة على بيزا نفسها. أرسل فيتلي — بناء على تحريض من أخيه الأكبر فيتلوزو Vitellozzo — قواته التي استولت على الفور على معقل أسكانيو Ascanio القريب (وقد قطع فيتلي كعادته أذرع المدافعين عن المعقل)، ثم شرع في قصف بيزا باستخدام مائة وتسعين مدفعًا. وبحلول السادس من أغسطس/آب، أطاحت مدفعيته بأربعين ياردة من السور الذي يطوق المدينة، وبعدها بأربعة أيام، اقتحم جنوده حصن بيزا مجبرين قائده العسكري على الفرار. وبعد مضي أيام قلائل، وفي غضون الاحتفال بعيد صعود السيدة العذراء، استولى جنوده على كنيسة وما يتاخمها داخل سور المدينة. وهكذا، بعد ما يقرب من خمس

سنوات من الاستقلال، أخيرًا، بدا أن المدينة المتمردة ستقع مرة أخرى تحت رحمة فلورنسا.

ومع ذلك فإن مجلس السيادة لم يجازف إذ أصدر قرارًا — في ظل القصف المستمر — باحضار لوحة «المادونا» Madonna (السيدة العذراء مريم) من مدينة «إمبرونيتا» Impruneta إلى فلورنسا وذلك في خضم الإعداد لهجوم فيتلي. وكانت لوحة المادونا هي أثمن لوحة في فلورنسا، وقد رسمها القديس لوقا، كما ورد في الأساطير، وقد وُجدت مدفونة تحت الأرض في عام ١٠٠٠م تقريبًا حينما كانت تُحفر أساسات كنيسة سانتا ماريا التي تقع في إمبرونيتا على بعد سبعة أميال جنوب فلورنسا. ويُقال إن اللوحة وُجدت تبكي من الألم عندما ارتطم الجاروف بها، ومنذ ذلك الحين حُفظت هذه الصورة الخارقة في الكنيسة، وقد جرت العادة أن تُحمل إلى فلورنسا وقت الحاجة إليها في موكب يكون المشاركون فيه حفاة القدمين وتكون الصورة مغطاة بعناية. وعلى مدار السنوات الخمس السابقة، نُقلت اللوحة إلى فلورنسا على الأقل في أربعة أحداث مختلفة كي تحدث المعجزات، مثل جعل الطقس معتدلًا كي يتناسب مع الحصاد عام ١٤٩٤م، وكذلك في حادثة المذبحة الدموية التي حدثت لأربعين جندي من بيزا على أيدي أهالي ليفورنو Livorno، عام ١٤٩٦م.

أما في هذا الحدث الأخير، وبالتحديد في الرابع والعشرين من أغسطس/آب، فقد توقف الموكب الذي يحملها حينما تعلقت الصورة في فرع إحدى أشجار الزيتون، إذ كانت تُنقل عبر الطريق المار بالريف، وعلى الرغم من هذا الحادث المؤسف فقد نظر الجميع للأمر على أنه فأل حسن. بيد أن أهل بيزا لم يذعنوا. أما الإشاعات التي راجت بأن أهل بيزا يتسلحون بسهام مسممة فقد جعلت رجال فيتلي يترددون في الهجوم. ولم يكن فيتلي نفسه في الحالة المزاجية التي تسمح له

بأن يحشد كل قدراته وملكاته العقلية لمواجهة الأمر؛ إذ إن مجلس الشعب كان قد اتخذ قرارًا يعارض السماح له بنهب المدينة (وهذا النهب كان من شأنه أن يجعله هو ورجاله أثرياء بسبب الغنائم التي كانوا سيحصلون عليها)، مما أفقده الرغبة في شن مزيدٍ من الهجمات. لقد كان متمردًا إلى درجةٍ أثارت على الفور الشكوك حول خيانته، تلك الشكوك التي زادها قراره برفع الحصار في مطلع سبتمبر/أيلول (بزعم أن الملاريا كادت تقضي على جنوده). وكان هذا الإخفاق مثل ضربة قاصمة ومذلة معنويًّا لأهل فلورنسا، وكما ورد على لسان أحد المعلقين: «لقد كانت فلورنسا تموج بهمهمات الغضب.»

كان نيقولو مكيافيللي أحد الأشخاص الذين أثار حيرتَهم وسخطَهم إخفاقُ فيتلي غير المبرر في الاستيلاء على المدينة. فإذا كان مكيافيللي قد كوّن بالفعل أفكارًا سيئة عن كل من جاكوبو دابيانو وكاترينا سفورزا، فإن التردد ذا العواقب الوخيمة لفيتلي يوجز الاستخفاف بالمسئولية والنفاق الذي يوسم به هؤلاء الذين يحاربون في سبيل المال وليس من أجل المثل الوطنية، فرفع فيتلي للحصار جعل منه متهمًا إما بالجبن وإما بما هو أبشع من ذلك وهو التآمر خفية مع العدو، وكان مكيافيللي مقتنعًا بالأمر الثاني. ونظرًا لسخط مكيافيللي الشديد على «غدر فيتلي»، كما أطلق عليه، ادعى مكيافيللي أن مسئولية إخفاق الحصار «تقع على عاتقه»، وكتب مكيافيللي أن قائد المرتزقة قد استحق «عقابًا أبديًا».

ولم يدم الأمر طويلًا حتى نال فيتلي هذا العقاب، فقد قُبض عليه وأُعيد إلى فلورنسا حيث نال قسطًا من العذاب على المخلعة، ثم قُطعت رأسه في الأول من أكتوبر/تشرين الأول بعدما اتُفق على أنه مذنب (بالرغم من عدم توافر الأدلة) عند محاكمته بتهمة تقاضي رشوة من أهل بيزا. ونُفذ حكم الإعدام في بهو يعلو قصر مجلس السيادة حيث اكتظت الساحة أسفل القصر بالجموع. وقال واحد ممن شاهدوا

الواقعة: «كان من المتوقع أن يُلقى برأسه إلى الساحة»، واستطرد قائلًا: «لكنها لم تُلقَ إلى أسفل، بل عُلّقت على رمح وعُرضت في شرفات البهو وإلى جانبها شعلة مضيئة حتى يتسنى للجميع رؤيتها.»

وفي نفس الوقت اعتقل عدد من رفاق فيتلي المقربين إليه بما فيهم طبيبه الخاص، وكان من بينهم رجل مُسمى على اسم الملاك «شاروبيم» شُنق بعد ذلك بقليل في شرفة «قصر ديلابودستا» Palazzo del Podestà. لكن فيتلوزو — أخو باولو — الذي كان أحد قادة المرتزقة والذي اشتهر بشراسته، تمكن من الهرب من قبضة العدالة الفلورنسية. ويمثل هروبه مع مئتين من الجنود إحدى الهفوات التي ستندم عليها فلورنسا لاحقًا.

# الفصل الثالث

كان من المقرر أن تنتهي فترة تولي مكيافيللي لمنصب مستشار ثانٍ بعد أشهر قلائل من الفشل الذريع في الاستيلاء على بيزا، وقد جرت العادة أن يُنتخب المستشارون للمنصب في البداية لفترة تدوم سنتين، أما في حال مكيافيللي فقد اختير عام ١٤٩٨م ليشغل المنصب لفترة عشرين شهرًا فحسب؛ وهي الأشهر المتبقية من مدة تعيين أليساندرو براسيزي. وفي السابع والعشرين من يناير/تشرين الثاني عام ١٥٠٠ وُضع اسم مكيافيللي أمام مجلس الشعب للمرة الثالثة في خلال فترة لم تتجاوز العامين. وبلا شك لم يُؤخذ الفشل في اخضاع بيزا ضد مكيافيللي، ويتضح ذلك في عودته إلى منصبه في حينه، إنما هذه المرة لفترة تمتد لسنة واحدة طبقًا للوائح. ولم يكافأ مكيافيلي فحسب بمنحه مدة جديدة في المنصب وإنما أُعطي أيضًا ستة فلورينات ذهبية «نظير الأهوال التي خاضها». وبلا ريب، توالت المخاطر على فلورنسا وذلك يُعزى إلى عدم السيطرة على بيزا حتى ذلك الحين، وكذلك بسبب الحرب الصريحة التي نشبت بين فرنسا وميلانو.

وفي مايو/آيار، كان مكيافيللي يعد للرحيل إلى بيزا عندما توفي والده، وبدا أن مكيافيللي ووالده برناردو كان كل منهما قريبًا من الآخر للغاية؛ فقد كانا يتشاركان الشغف بالكتب، والولع بالسياسة،

والتمتع بروح دعابة لاذعة. وكانت والدة مكيافيلي قد قضت نحبها عام ١٤٩٦م، وكانت أختاه الكبيرتان قد تزوجتا، لذا كان يعيش مكيافيلي وحده في منزل بفلورنسا مع أخيه الأصغر توتو Totto، الذي كان يسعى للعمل في الكنيسة. ولم يكن برناردو نفسه متدينًا بدرجة كبيرة، مع أنه تبرع بستار مزخرف وُضع خلف مذبح أحد الأديرة بحيث يمكن أن تُتلى الصلوات في القداسات على روحه. وقد دُفن في مدافن آل مكيافيلي في كنيسة سانتا كروتشيه بفلورنسا، وحدث في غضون الأعوام القلائل التالية احتيال غريب ومريع إلى حد ما، فقد دُفن عدد من الجثث بطريقة غير مشروعة في هذه المقبرة، وعندما أراد أحد رهبان كنيسة سانتا كروتشيه التخلص من هذه الجثث الدخيلة على المقبرة، جاء رد نيقولو ليكشف عن جانب من شخصيته وشخصية والده، إذ كتب نيقولو يقول: «دعهم، فوالدي كان يعشق التحدث مع الآخرين، وكلما كان بصحبته المزيد من الجثث، ازدادت سعادته.»[١]

ولم تترك الأعباء الحكومية لمكيافيلي الكثير من الوقت ليندب أباه، فلم يكد يمر إلا شهران على موت برناردو حتى شرع في رحلته التي بلغت مسافتها ٤٥٠ ميلًا إلى ليون بفرنسا في منتصف يوليو/تموز. وكانت هذه أولى رحلاته خارج إيطاليا؛ وهي أولى رحلاته بحق التي يسافر فيها من فلورنسا ممتطيًا الجياد لأكثر من مجرد بضعة أيام. وأُعطي مكيافيلي ثمانين دوكة نفقة للرحلة، كما مُنح شرف صحبة أحد الرجال البارزين وهو فرانشيسكو ديلا كازا Francesco della Casa، السفير السابق لدى فرنسا. كانت التعليمات المعطاة لمكيافيلي من قبل مجلس السيادة تقول: «يجب عليك التحرك بأقصى سرعة ممكنة»، وهو الأمر الذي دفعه إلى قيادة الجياد بسرعة وتبديلها كلما أمكنه في كل استراحة من استراحات المسافرين[٢]. ولم تكن مهمة مكيافيلي هذه المرة هي التفاوض مع قائد حقير مثل جاكوبو دابيانو، وإنما التفاوض

مع أحد أكثر الرجال نفوذًا في أوربا وهو الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا.

وكانت قضية بيزا هي سبب هذه البعثة أيضًا؛ ففي نهاية يونيو/حزيران، أي بعد مضي عشرة أشهر على إجهاض حصار باولو فيتلي، أعاد الفلورنسيون مجددًا غاراتهم على المدينة المتمردة بيزا. وكانت القوات تتألف هذه المرة من مرتزقة سويسريين وجاسكونيين أعارهم الفرنسيون إياهم لأن الملك لويس الثاني عشر (الذي خلف الملك تشارلز الثامن عام ١٤٩٨م) كان قد وعد بإعادة بيزا إلى الفلورنسيين مقابل حصوله على خمسين ألف دوكة. ومرة أخرى لم تسر الأمور كما هو مخطط لها. وفي تكرار مريع لأحداث الصيف الماضي، وبمجرد قيام القوات بتدمير بعض الحصون بالمدفعية، ومن ثم بات الطريق خاليًا أمامهم؛ لم يُظهر السويسريون والجاسكونيون أي حماس لدخول المدينة أكثر من ذلك الذي كان من رجال فيتلي. بل تصرفوا في الحقيقة بطريقة أسوأ من تلك التي تصرف بها جنود فيتلي، إذ هجر العديد من الجاسكونيين الميدان ناهبين ما طالته أيديهم في طريقهم. أما السويسريون فقد اقترفوا أمورًا أكثر خسة، فقد احتجزوا المبعوث الفلورنسي كرهينة وطلبوا فدية حتى يطلقوه.

ثم أُختير مكيافيلي لمرافقة ديلا كازا في بعثته إلى بلاط ملك فرنسا لأنه شاهد بأمّ عينيه الكثير من هذه المشاهد الفوضوية والحقيرة، وكان على كل منهما أن يُجنب الفلورنسيين أي لوم في القضية، ويُعلم الفرنسيين بأن الخطأ يقع على عاتق القائد الفرنسي الذي تصرف — كما قال مجلس السيادة — تصرفات تنم عن «الجبن والفساد».

وفي السادس والعشرين من يوليو/تموز وصل مكيافيلي وديلا كازا إلى البلاط الفرنسي في ليون، بعد اجتيازهما جبال الألب عبر طريق مون سيني Mont Cenis، قاطعين ما يقرب من خمسين ميلًا

في اليوم الواحد. لكنهما لم يكادا يصلان ليون حتى أُجبرا على امتطاء جواديهما مرة أخرى ومتابعة المسير لمسافة ١٢٥ ميلًا نحو الشمال الغربي إلى مدينة نيفير Nevers التي تقع في قلب منطقة بورجاندي Burgundy، نظرًا لأن البلاط الملكي كان بلاطًا رحالًا (وعدم استقرار مقر البلاط يعكس ولع الملك لويس الثاني عشر بصيد الآيائل الحمر، وكذلك توقه للفرار من الطاعون المتفشي.) ولم يكادا يصلان إلى مدينة نيفير حتى أُرغما على اللحاق بالبلاط لمسافة تسعين ميلًا شمالًا إلى مدينة مونتارجي Montargis. ومرة أخرى، لم يكادا يصلان إلى مدينة مونتارجي حتى وجدا البلاط قد واصل مسيرته الجليلة إلى مدينة ميلون Melun بالقرب من باريس، ثم انتقل البلاط بعد ذلك مباشرة مسافة مئة ميل غربًا متجهًا إلى مدينة بلوا Blois. وهكذا قطع مكيافيللي وديلا كازا منذ خروجهما من فلورنسا ما يزيد على سبعمائة ميل (فكما يذكر أجوسطينو فيزبوتشي في أحد خطاباته إلى مكيافيللي متعجبًا): «غالبًا ... يقع البلاط في عالم آخر.»

ولم يكن كل من مكيافيللي وديلا كازا متحمسين للقائهما مع الملك لويس ومستشاره المفضل جورج دامبواز Georges d’Amboise الملقب بكاردينال روان Rouen، والتقى المبعوثان الفلورنسيان بالملك لويس ومستشاره روان (الذي كان مكيافيللي يدعوه روانو Roano) للمرة الأولي في نيفير. ولم تفلح المناقشات التي جرت على مدار الأسابيع القليلة التالية في تحسين العلاقات بين فلورنسا وفرنسا؛ إذ لم يكن الملك لويس راغبًا في المضي قدمًا في الحرب إلا في حال قيام فلورنسا بتمويلها، والأدهي من ذلك، أنه كان يريد أن يدفع الفلورنسيون أجور السويسريين العصاة. وعجز الفلورنسيون — الذين كانوا في حاجة إلى العون الفرنسي للاستيلاء على بيزا مرة أخرى — عن رفض مطالبه. ومع ذلك شاب رد الحكومة الفلورنسية التردد والمراوغة اللذان كانا من

شيم سياستها الخارجية، ولم يختلف إحباط مكيافيللي من جراء هذه التكتيكات المماطلة كثيرًا عن إحباط الملك، فقد نوه في مراسلاته لرؤسائه أن الفرنسيين «لا يحترمون إلا أولئك المتسلحين تمام التسليح أو أولئك الذين لديهم النية في الدفع»، لكن بكل أسف افتقر الفلورنسيون إلى كلا الحالين. والواقع، كما أخبرهم إياه مكيافيللي، أن الفرنسيين «يطلقون عليكم سادة نكرة».

وبلا ريب، تلذذ مكيافيللي في نقل هذه الإهانة إلى هؤلاء الرجال الذين كان يتزايد حنقه عليهم يومًا بعد يوم، إذ كانت إحدى المشكلات الفطرية للحكومة الفلورنسية التي اكتشفها مكيافيللي تكمن في سياسة «الباب الدوار» إذا جاز التعبير، أي في قصر مجلس السيادة. فقد كان يُنتخب السادة الثمانية ورئيسهم حامل لواء العدالة لفترة مدتها شهران. والسبب في هذه الفترات بالغة القصر أنه ما من أحد غير أعضاء النقابات التجارية والصناعية يصلح للمنصب، ومن ثم فإن الفترات القصيرة لتولي مناصب الخدمة العامة تضمن عدم بقائهم طويلًا بعيدًا عن مخازنهم ومكاتبهم المحاسبية. بيد أن ما كان يصلح للتجارة والصناعة لم يكن يصلح للسياسة؛ فلما كان الرجال الذين تولوا هذا المنصب في قصر السيادة لفترات قصيرة — قليلي الخبرة أو المعرفة، أصبحت فترات توليهم المنصب تنتهي دون أن يكتسبوا أية خبرات فعلية في الشئون العامة. ولم تقتصر العواقب على الافتقار إلى الاستمرارية والخبرة فحسب، بل أيضًا الافتقار المتأصل للمبادرة والاتجاه الواضح من جانب حكومة أضحت مغرمة بالتفوه بحِكم جوفاء مثل: «على المرء ألا يخاطر إلا عند الضرورة القصوى.»[٣] ولم تستطع مثل هذه الأقوال المأثورة الجوفاء أن تبهر كثيرًا رجلًا مثل مكيافيللي ولا سيما في هذه المرحلة المبكرة من حياته المهنية.

وسرعان ما أصبح جليًّا أن الأمر يحتاج إلى شخصيات تتمتع بنفوذ أكبر مما يتمتع به مكيافيللي وديلا كازا للتفاوض مع حليف شديد البأس وصعب المراس مثل الملك لويس الثاني عشر. بيد أن مجلس السيادة داوم على سياسة التلكؤ المعهودة، تاركًا مكيافيللي الحانق ينتظر أسبوعًا تلو الآخر مجيء سفير فلورنسي إلى فرنسا. ولم ينقضِ منتصف ديسمبر/كانون الأول، حتى كان بيد مكيافيللي رسالة تلقاها في مدينة نانت Nantes تفيد أن السفير أخيرًا قادم في الطريق، مما جعل بال مكيافيللي يهدأ أخيرًا ويتسلم تصريح بدء رحلة عودته إلى فلورنسا. وكان لدى مكيافيللي — في غضون رحلة عودته الطويلة إلى إيطاليا — متسع من الوقت حتى يفكر مليًّا في أوجه عجز الحكومة التي كانت أسيرة للجنود ونزوات الحكام الآخرين، والتي أسست سياستها الخارجية على ما لا يزيد عن التلكؤ والمراوغة.

وكان مكيافيللي تواقًا إلى الرجوع إلى فلورنسا، لقد افتقد أصدقاؤه في المستشارية شخصيتَه المفعمة بالحيوية، وبالتأكيد افتقدهم هو أيضًا. ففي أكتوبر/تشرين الأول، تسلم مكيافيللي خطابًا من فيزبوتشي يصف له كيف أن بياجيو وغيره من موظفي السكرتارية «تتملكهم جميعًا رغبة عارمة لرؤيتك بسبب أحاديثك المسلية والمضحكة والممتعة التي عندما تتردد أصداؤها في آذاننا، ينتابنا شعور بالراحة والبهجة والانتعاش.» وثمة شخص آخر في فلورنسا كان بالمثل يترقب عودة «مكيا»، فقد كتب له مساعد بالمستشارية يُدعى أندريا دي رومولو Andrea di Romolo عن امرأة عاهرة بالقرب من جسر بونت ألي جراتسي Ponte alle Grazie تنتظره «فاتحة فرجها ... أنت تعرف عما أتحدث».

وعاد مكيافيللي إلى فلورنسا في الرابع عشر من يناير/كانون الثاني عام ١٥٠١، بعد أن أمضى ستة أشهر كاملة خارج فلورنسا. وصاحب

عودته مزيج من الحزن والقلق وكذلك البهجة، فقد توفيت أخته الكبيرة بريمافيرا Primavera أثناء غيابه وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها تاركة وراءها زوجها وصبيًّا في الرابعة عشرة من عمره يدعى جيوفاني Giovanni، الذي كان مريضًا بشدة لدى عودة مكيافيلي. كتب توتو البائس شقيق ميكافيلي قائلًا: «إن هذا هو عام بلايانا.»

كان على مكيافيلي أيضًا أن يضع في حسبانه مسألة إعادة انتخابه، إذ ستنتهي فترة توليه لمنصبه التي دامت مدة عام بنهاية الشهر، فمنذ شهر أكتوبر/تشرين الأول وفيزبوتشي يحذره بأن وظيفته ستكون عرضة لأن يفقدها ما لم يَعُد. وعاد مكيافيلي إلى وظيفته في الوقت المناسب لكنه ناشد رؤساءه أن يمنحوه راحة كان في أمس الحاجة إليها، فقد أخبرهم أن شئونه الخاصة «في حالة فوضى عارمة».

# الفصل الرابع

تمتد المنطقة الإيطالية المعروفة باسم رومانيا Romagna إلى ما يقرب من تسعين ميلًا من الجنوب الشرقي من بولونيا إلى ساحل البحر الأدرياتيكي، ويحدها طريق مستقيم يبدو وكأنه خط مرسوم بالمسطرة معروف باسم طريق فيا أميليا Via Aemilia وهو طريق روماني قديم، كما احتوت المنطقة على عدد من المدن الحصينة وهي إيمولا Imola، وفاينتسا Faenza، وفورلي Forlì، وتشيزينا Cesena، وريميني Rimini، ثم تنحدر قليلًا نحو الجنوب لتضم أيضًا مدينة أوربينو Urbino، وكذلك مدينة تشيتا دي كاستيلو على الجانب الآخر من جبال الأبنيني. وكانت رومانيا جزءًا من الدول البابوية، وكان لكل من تلك الدول نائب يحكمها باسم البابا الذي كان يُؤدى له مبلغ سنوي يُعرف باسم «الجزية». وعادة ما كان يورث هذا المنصب داخل عائلة من يتولاه: فنجد عائلة مانفريدي هي العائلة الحاكمة في فاينتسا، وعائلة مالاتيستا في ريميني، وعائلة سفورزا في بيزارو، وعائلة فيتلي في تشيتا دي كاستيلو. وعلى الرغم من كونهم ليسوا أكثر من مجرد أتباع للبابا، فإن الكثيرين منهم كان لديهم مسار مستقل. وكانت أكبر سلعة يصدرونها إلى الخارج هي الحرب نظرًا لأن معظمهم — مثل عائلة فيتلي — كانوا قادة مرتزقة. وما كتبه دانتي قبل

قرنين في «الكوميديا الإلهية» بأن «الحرب كانت وستظل في قلب طغاة رومانيا»[١] — كان لا يزال صحيحًا عام ١٥٠٠م. وأحيانًا ما كان طغاتها يشنون الحرب حتى ضد البابا نفسه، كما هو الحال مع سيجيسمندو مالاتيستا Sigismondo Malatesta، المُلقب باسم «ذئب ريميني» وهو قائد عسكري عنيف ومارق، قتل أول زوجتين له، وسافر عام ١٤٦٨م إلى روما بنيّة صريحة (لم تتحقق) لقتل البابا بولس الثاني.

وهؤلاء الحكام المولعون بالحرب والحريصون على مصالحهم الذاتية جعلوا من رومانيا أضعف دولة في الدول البابوية. ولطالما كانت رومانيا على مدار قرون منطقة موحشة وغير مستقرة وعرضة للمعتدين من الخارج وغير جديرة بالثقة في علاقتها مع البابا. وقد اشتدت المخاطر المنهالة على البابوية حديثًا بمحاولة كاترينا سافورزا — حاكمة مدينتي إيمولا وفورلي الرومانيتين — اغتيال البابا ألكسندر السادس، الذي كان يعرف من قبل باسم رودريجو بورجيا Rodrigo Borgia، وبعد إخفاق مؤامرتها في مارس/آذار عام ١٤٩٩، أصدر ألكسندر مرسومًا بابويًّا يجردها فيه من ممتلكاتها وأطلق عليها لقب «ابنة الإثم». وسرعان ما غزى سيزار بورجيا Cesare Borgia، ابن البابا البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا أراضيها في نهاية عام ١٤٩٩م. وفرت كاترينا إلى معقلها بفورلي، لكن هذه المرة لم يكن هناك حاجة للتظاهر بالشجاعة على السور، فقد ذُبح جيشها المكون من أربعمائة جندي الذي يحميها، وأُسرت هي نفسها وأُخذت إلى روما كسجينة.

ولم تكن كاترينا سفورزا هي الشغل الشاغل الوحيد للبابا، فقد أراد ألكسندر إيجاد حليف للكنيسة يمكن التعويل عليه بشكل أكبر — ويقوم في أثناء ذلك بتأسيس أسرة بورجيا الحاكمة — وذلك عن طريق تنصيب سيزار كحاكم لرومانيا بأكملها. وكان سيزار مجرد أداة لتحقيق طموح والده في معظم سنوات العقد السابق؛ إذ وجد نفسه

وهو في سن الخامسة عشرة أسقفًا على مدينة بمبلونا Pamplona، وفي سن السابعة عشرة — أي بعد عام واحد من اختيار والده لمنصب البابا — أضحى كاردينال مدينة فالنتسيا، وهو ما يعد قفزة سريعة في الرتب الكنسية باعتبار أنه لم يحصل أساسًا على أية درجات كهنوتية، وأيضًا باعتبار ما كتبه أحد المؤرخين بتكتم شديد، إذ قال عنه: «لقد كان عازفًا تمام العزوف عن المهن الكهنوتية.» وفي ١٤٩٧م، تنازل عن منصب الكاردينال، عقب اغتيال أخيه الأكبر (ويعتقد الكثيرون أنه وراء هذا الحادث) كي يمتهن عملًا علمانيًّا. وفي العام التالي، أصبح سيزار دوقًا على فالنتينوا (ولذلك لُقب في إيطاليا باسم فالنتينو Valentino، كمكافأة لوالده من الملك لويس الثاني عشر نظير منح البابا إياه حق الطلاق من زوجته. لكن سيزار وأباه اشتهيا الحصول على حكم دوقيات أرفع شأنًا من الأراضي البعيدة الواقعة على ضفاف نهر الرون التي لم تطأها قدمه سوى مرة واحدة.

أنزل ألكسندر السادس عقوبة الحرمان الكنسي بنواب كل من بيزارو وريميني وفانيتسا، متعللًا بعدم دفعهم الجزية ومُعلنًا مصادرة أراضيهم لصالح الكنيسة. وحدثت الطامة الثانية عندما اقتحم سيزار بورجيا رومانيا مجددًا على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف من المرتزقة الفرنسيين والإسبانيين في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٥٠٠، في الوقت الذي كان فيه مكيافيللي في بعثته إلى فرنسا. وسقطت بيزراو دون أدنى مقاومة، تلتها في ذلك مباشرة ريميني. ولم تُظهر أي من المدن مقاومة جدية إلا فاينسا التي سقطت أيضًا في نهاية الأمر في أبريل/نيسان عام ١٥٠١ عقب حصار طويل. وعلى الفور كافأ البابا ألكسندر ابنه بمنحه لقب دوق رومانيا، معطيًا إياه سيادة مطلقة على المنطقة المتمردة.

وكان سيزار بورجيا يتباهي بلقب جديدٍ مؤكَّد، وجيشٍ كبير خاض به حملتين عسكريتين خاطفتين وناجحتين، ناهيك عن أنه كان يحظى

بتأييد كل من البابا وملك فرنسا لويس الثاني عشر، فقد تزوج من إحدى قريبات الملك تُدعى تشارلوت دالبرت Charlotte d'Albert عام ١٤٩٩م. وليس من الغريب أنه كان متعطشًا للمزيد من الفتوحات، فمنذ الخريف السابق، كان أجوسطينو فيزبوتشي يورد في خطاباته لمكيافيللي — الذي كان في فرنسا حينذاك — عن رواج شائعات مزعجة تفيد أن بورجيا يخطط للهجوم على فلورنسا وإعادة المديتشيين إلى الحكم. وما كان يزيد الأمور إزعاجًا هو أن بورجيا قد ألحق في خدمته فيتيلوزو فيتلي الأخ الأكبر لباولو فيتلي. ومنذ أن أقسم فيتيلوزو بالثأر من فلورنسا لموت أخيه، وهو يواصل سعيه كمرتزق بوحشية جلية، على خلاف سلوكه الحذر خارج أسوار بيزا. قام فيتلوزو بأسر بيرو دي مارشيانو Pirro da Marciano شقيق لودوفيكيو الذي أرسله الفلورنسيون ليقبض عليه عقب فشل بيزا الذريع، ثم قطع رأسه. وعلى مدار الثمانية عشر شهرًا التالية، سلب فيتلوزو المنطقة المحيطة بمدينة كورتونا Cortona، وخاض حربًا ضروسًا خارج بوابات مدينة بيروجيا Perugia راح ضحيتها بضع مئات من الرجال، كما ساعد بورجيا في الاستيلاء على فاينتسا بمساعدة ألف من الجنود المشاة. أما أبشع نزواته فقد حدثت في سبتمبر/أيلول عام ١٥٠٠ عندما نهب مدينة أكواسبارتا الصغيرة التي تقع في منطقة أومبرينا وحرق قلاعها وقتل حاكمها ألتوبيلو دا كانال Altobello da Canale ثم مثّل بجثته.

وكان فيتلوزو متعطشًا للثأر من الفلورنسيين أكثر من أي شيء آخر، ويبدو أن بورجيا كان مستعدًا للعمل على إرضائه، إذ نقل جيشه في أوائل مايو/آيار إلى الأراضي الفلورنسية مطالبًا بالحصول على تصريح لكي يمر عبر منطقة توسكانيا إلى بومبينو، إذ كان يخطط لطرد جاكوبو دابيانو. وتملك الفزع التوسكانيين لأن بورجيا — دون انتظار رد من مجلس السيادة — واصل زحفه نحو فلورنسا محملًا بالتهديد والوعيد.

وبعدما اندفعت قواته في أنحاء الريف، أخذت في «النهب واقتراف شتى الأعمال الوحشية»، كما ورد على لسان أحد الفلورنسيين المذعورين. وعلى الفور حزم فلاحو الريف النفيس من مقتنياتهم وحمّلوها على البهائم، ثم ولوا الأدبار إلى داخل أسوار المدينة خوفًا على حياتهم.

وكانت فلورنسا ذاتها غير مستعدة للتعامل مع التهديد على نحو يدعو إلى الأسى. وعليه، أُرسل على الفور السفراء (بمعية مجموعة من الموسيقيين) للقاء بورجيا في معسكره خارج فلورنسا. وعند بدء المفاوضات رضخ السفراء لكافة مطالبه؛ نظرًا لضعف موقفهم. إذ قبلوا أن يدفعوا له مبلغ ست وثلاثين ألف دوكة سنويًّا، وهو ضرب من ضروب الإتاوات الباهظة إذ كان هذا المبلغ يصل إلى ربع إجمالي ميزانية المدينة. ومرة أخرى في عام ١٤٩٤م، أذلت ضراوة بورجيا الوقحة فلورنسا بشدة إذ عرى ضعفها العسكري البالغ على الملأ.

وكان مكيافيللي منشغلًا في غضون تلك الأشهر من عام ١٥٠١م بشئون بستويا، وهي مدينة صغيرة تقع على أحد روافد نهر أرنو، وتبعد عشرين ميلًا شمال غرب فلورنسا. وكانت بستويا تخضع للحكم الفلورنسي منذ منتصف القرن الرابع عشر بيد أن عملية حفظ السلام لم تكن سهلة بالمرة، فقد عجت مدينة بستويا بالعنف والخطر حتى بمقاييس ذلك العصر المريعة، حيث كان يسودها صراع مستمر بين عائلتين مناؤتين، هما آل كانسيليري Cancellieri وآل بانسياتشي Panciatichi، فبينما كان مكيافيللي في بعثته إلى فرنسا، قام آل كانسيلري بإبعاد آل بانسياتشي من المدينة وسط الكثير من أعمال النهب والقتل، وداخل أسوار بستويا عمت الفوضى العارمة، فكانت الفصائل المسلحة المتحاربة تتقاتل في كل أنحاء الريف كثير الروابي. وقد أُشير إلى هذه الفوضى بتعبير لطيف على أنها «نوبات غضب» أو «نزوات عابرة». وفي أوائل

فبراير/شباط، لم يكد يمر سوى أسبوعين على رجوع مكيافيللي من فرنسا، حتى أُرسل إلى المدينة كمبعوث مخول بسلطات كبيرة لإنهاء تلك النزوات وخلق نوع من السلام.

ولم تبدأ هذه البعثة الدبلوماسية بطريقة ميمونة؛ فبعد وصول مكيافيللي بأيام قلائل فقط، نشبت معركة بين الآلاف من أهل بستويا — وهو ما يمثل نسبة كبيرة من سكانها — نجم عنها مائتا قتيل. وقضى مكيافيللي في المدينة عشرة أيام قبل الرجوع إلى فلورنسا، لكن بحلول أبريل/نيسان نشبت معارك أخرى أودت بحياة ما ينيف على خمسين آخرين من السكان. وفي بداية يوليو/تموز، لقي ثلاثمائة فرد حتفهم وهم يحاربون، في الوقت الذي أُحرق فيه قصر بانسياتشي عن آخره، وعُلقت رءوس اثني عشر عضوًا من عائلة بانسياتشي في رماح وعُرضت في أنحاء المدينة، بينما استخدمت الرءوس الأخرى المفصولة عن أجسادها في مباريات كرة المضرب، وهي شكل بدائي من أشكال لعبة التنس. وعلى الفور أُمر مكيافيللي بالذهاب إلى بستويا مرة أخرى للتمهيد لعقد هدنة أخرى.

ولعل مكيافيللي انتابته حقًّا شكوك خطيرة إزاء بعثته، فبعد مُضي ما يزيد عن عقد من أدائه لمهمته سيشرح الطرق الثلاث البديلة لفرض النظام في مدينة منقسمة الفصائل، فيقول: «يمكن للمرء إما أن يعدم قادة الفصائل، أو ينفيهم خارج المدينة، أو يرغمهم على التوقف عن القتال وتوقيع اتفاقية سلام. ومن بين هذه الطرق الثلاث فإن الطريقة الأخيرة هي الأشد ضررًا فهي أقلها حسمًا وأكثرها لا فاعلية.» ومع ذلك فقد لاحظ بأسى أن هذه هي الطريقة التي تتبعها فلورنسا دائمًا في بستويا. ويري مكيافيللي أن الطريقة المثلى لإحلال السلام في مدينة مثل بستويا هي الطريقة الأولى. وعلق مكيافيللي بطريقة منتقدة

قائلًا: «لكن نظرًا لأن مثل هذه الاجراءات الحاسمة تنطوي في ذاتها على شيء عظيم ونبيل، فلا يمكن لجمهورية ضعيفة أن تنفذها.»

وحدثت أيضًا مجزرة أخرى في غضون زيارته الثانية لبستويا، وسرعان ما تصالحت جميع الأطراف قبل نهاية الصيف، إذ قامت كل فصيلة باختيار أربعة أفراد ليمثلوها في مجلس سيادة بستويا، بيد أن الأوضاع السلمية لم تدم أكثر من أسبوع قبل اندلاع المزيد من أعمال العنف. في تلك الأثناء، كان مكيافيللي قد عاد إلى فلورنسا ليولي اهتمامه لمسألة أخرى، ففي سن الثانية والثلاثين شرع مكيافيللي في الزواج.

وكانت عروسه تُدعى ماريتا كورسيني Marietta Corsini، وما من شيء معلوم يقينًا عن تفاصيل زواجهما، ولا حتى تاريخ يوم الزفاف بالضبط، ولا نعرف عن ماريتا نفسها إلا أقل القليل. فقد كانت ماريتا، شأنها في ذلك شأن مكيافيللي، تنتمي إلى أحد الفروع الفقيرة لعائلة فلورنسية عريقة ذات شأن من النبلاء القلائل، فقد كانت تعد عائلة كورسيني إحدى العائلات النبيلة التي تقطن المنطقة المحيطة بمدينة بوجيبونسي جنوب فلورنسا، لكنها تعرضت في منتصف القرن الرابع عشر لتدهور مادي من جراء انهيار بنكي بيروتزو وباردي الفلورنسيين. ويعد أندريا كورسيني Andrea Corsini — أسقف مدينة فيزولي الذي عاش في القرن الرابع عشر والذي رأى رؤية للسيدة العذراء ورفع إلى مصاف القديسين فيما بعد عام ١٦٢٩م — ألمع أفراد هذه العائلة.

ومن الأسلم أن نفترض أن هذا الزواج لم يكن زواج حب بالدرجة الأولى، فثمة أشياء أخرى أكثر أهمية بالنسبة للرجل مثل مقدار المهر الذي ستدفعه له العروس وكذلك مقدار محيط فخذها — بغرض إنجاب الأطفال. وجاء زواج مكيافيللي ثمرة للمفاوضات التي جرت بين مكيافيللي ولويدجي Luigi والد ماريتا وأخيها لانكيولينو Lanciolino.

وغالبًا ما كان وسيط الزواج يقوم بالإعداد لحفل العرس في فلورنسا، وكان ذلك يشتمل على سلسلة من الاتفاقات التي كانت تُوثق في عقود قانونية ثم تُمارس المراسم رسميًّا. أحد هذه المراسم يعرف باسم impalmamento وفيه يعرب العريس عن رغبته في الزواج من طريق إمساك يد عروسه المستقبلية في حضور عدد من الشهود، يعقب ذلك مرسم آخر يعرف باسم sponsalia وهو لقاء رجال العائلتين لنقاش الأمور المادية بالغة الأهمية، مثل المهر وتكاليف فستان الزفاف، ثم يأتي المرسم الأخير الذي يعرف باسم nozze وفيه تسير العروس — عقب قداس الزواج — في موكب إلى منزل زوجها.

وفي وقت ما في أواخر صيف عام ١٥٠١م، سارت ماريتا إلى منزل بساحة فياديلا (الاسم الحالي لها فيا جوتشيارديني)، بالقرب من الطرف الجنوبي لجسر بونتي فيكيو. وكان منزلها الجديد عبارة عن جزء من مجمع مبانٍ يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الرابع عشر، ويضم ثلاثة أو أربعة منازل يقطنها جميعًا أقارب نيقولو. وكان يوجد خلف هذه المنازل منطقة محاطة بسياج تظللها الأقواس المعمارية، وعرفت هذه المنطقة باسم «بلاط مكيافيللي». وكان لدى نيقولو خادم على الأقل، واشتمل منزله على حجرات لتخزين الخمور والحبوب في الدور الأرضي، وغرف نوم وغرف معيشة في الطابق الأول ومطبخ في الطابق العلوي. وكان يوجد خلف منزله بناية صغيرة مكونة من طابقين يمكن الدخول إليها بواسطة ممر، كانت تستخدم كمكان لإقامة الخدم. ومثل باقي منازل فلورنسا، كان يوجد قضبان حديدية في الشُرف بغرض إبقاء اللصوص خارج المنزل والنساء بداخله.*

* يقع منزل مكيافيللي — الذي هدم منذ وقت طويل — في المكان الذي يشغله الآن العقار رقم ١٦ بشارع فيا جوتشارديني.

وفي الواقع بدا منزل مكيافيللي لماريتا كسجن بسبب القضبان الموجودة في الشرفات، وقد كانت محقة في أن تندب حظها في أكثر من مناسبة، فمكيافيللي أبعد ما يكون عن الزوج المثالي. وبلا شك، آمن مكيافيللي، مثل معظم الرجال الإيطاليين الآخرين، بالمفاهيم المشار إليها في أغلى كتاب اقتناه برناردو مكيافيللي وهو كتاب Decretum الذي كتبه جراتيان Gratian، والذي يعلن فيه أنه «على النساء أن يخضعن لأزواجهن» وأن «ليس للمرأة أية سلطات». وكتب بعد ذلك الباحث الإنساني ليوناردو بروني Leonardo Bruni، أحد أسلاف مكيافيللي في المستشارية، عن سلطة الرجل مستخدمًا مصطلحات مستبدة لا تختلف كثيرًا عن تلك المستخدمة في الكتاب السالف ذكره، مثل قوله: «الرجل هو رأس الأسرة وهو الملك على منزله، إذا جاز التعبير.»

ويبدو أن مشكلة مكيافيللي لم تكن مشكلة تسلطه قدر ما كانت مشكلة عدم اكتراثه وخيانته، إذ سنراه بين الفينة والأخرى يرافق الغواني والعشيقات. يكتب له أحد أصدقائه بعد مرور عدة سنوات على زواجه: «إذا عرفت نفسك بحق، فستجد أنك لم تتزوج بعد.» وزعم مكيافيللي أنه يحسد العزاب، وتميزت كتاباته عن الزواج بتجردها من العاطفة وامتلائها بالسخرية. وكتب مكيافيللي في وقت لاحق: «كل رجل لديه عشيقة فهو في ورطة لأنه متزوج.» وفي أحد أعماله الأخرى يفتتح قصته القصيرة بمشهد يبدو فيه إله العالم السفلي وهو يتأمل كيف أن أكثر الأرواح الملعونة تلقي باللوم لما هي فيه على الأهوال التي لاقتها في حياتها الزوجية. كما اختتم أحد أعماله الأخرى — شرحه أحد كتب ليفي — بصورة عن النساء في روما القديمة وهن يقمن بدس السم لأزواجهن. أما بالنسبة لماريتا فيبدو أنها كانت امرأة ذكية وعطوف (وإن كانت متقلبة المزاج إلى حد ما)، استمتعت عن صدق

بعشرة زوجها وافتقدته بشدة كلما أخذته واجباته الحكومية بعيدًا عن فلورنسا.

وهكذا ينهمك مكيافيللي في عمله بعيدًا عن الحياة الزوجية، وفي الغالب بعد زواجه مباشرة، ففي أكتوبر/شرين الأول، كان مكيافيللي يمتطي جواده في طريقه إلى التعامل مرة أخرى مع الفصائل المتحاربة في بستويا. واكتشفت ماريتا بعدها مباشرة أنها حامل. ولم يكن لدى مكيافيللي حينئذ أي متسع من الوقت ليلعب دور الزوج الذي تغمره البهجة والشغف لأنه أصبح أبًا حتى وإن أراد هو نفسه ذلك. وأُرسل مكيافللي في العام التالي — على الأرجح في نفس الوقت الذي أنجبت فيه ماريتا طفلتهما — في مهمة أكثر أهمية، حيث مثّل فلورنسا في بلاط سيزار بورجيا.

# الفصل الخامس

بعد مضي عام على إخضاعه لرومانيا وترويعه لفلورنسا، ظفر سيزار بورجيا بنصر آخر لا يقل أهمية إذ استولى على دوقية أوربينو في يونيو/حزيران عام ١٥٠٢ باستخدام نفس أسلوب الخداع الجريء والغادر، فقد ناشد جيدوبالدو دا مونتفلترو Guidobaldo da Montefeltro حاكم المدينة أن يُعِينه على إخضاع مدينة كامرينو، ثم غزى على الفور مدينة أوربينو بألفي مرتزق إسباني بعد أن صدقه جيدوبالدو المنحوس وأرسل مدفعيته لتحاصر مدينة كامرينو. ويعد هذا الانتصار أكبر انتصاراته المذهلة على الإطلاق؛ إذ جعل منه هذا الانتصار سيدًا للمدينة الثرية والجميلة التي كانت تحكمها عائلة مونتفلترو منذ منتصف القرن الثاني عشر، كما جعل منه قوة بلا منازع تحسب لها القوى الإيطالية الأخرى ألف حساب.

وبلا ريب، أخذ الفلورنسيون تفوقه الجديد والخطير بعين الاعتبار، ومرة أخرى راجت شائعات مخيفة حول أن فلورنسا هي الغنيمة التالية في قائمة بورجيا، وعليه، وفي عشية دخوله أوربينو طالب بحضور السفراء كي يناقش معهم القضايا الخطيرة الخاصة بالتحالفات الإقليمية، ولم يتوان مجلس السيادة عن تلبية دعوته. وعلى الفور أُرسل نيقولو مكيافيلي بمعية أحد أعضاء عائلة فلورنسية مبجلة هو فرانشيسكو

سودريني Francesco Soderini أسقف فولتيرا، وما إن وصلوا قصر الدوقية بأوربينو في عشية الرابع والعشرين من يونيو/حزيران الموافق عشية عيد القديس جيوفاني، حتى استدعاهم بورجيا.

وفي صيف عام ١٥٠٢م، كانت فلورنسا عرضة لخطر جسيم، فقد سارت الحملة العسكرية على بيزا بشكل سيئ كما هو الحال دائمًا: ففي ذلك الربيع بعث الفلورنسيون فرقًا من المغيرين المعروفين باسم أصحاب المعاول marraiuoli (اشتُق اسمهم من الكلمة الإيطالية marra بمعنى معول) ليعيثوا فسادًا في ريف بيزا، غير أن أهل بيزا أسروا أصحاب المعاول وشنقوهم وجروهم وقطعوا جسد كل واحد منهم أربعة أجزاء، ثم أخذوا معاولهم إلى البساتين والمحاصيل في الأراضي الفلورنسية. والأدهى من ذلك أنه في مطلع يونيو/حزيران، قامت ثورة في أريتسو، المدينة الخاضعة للهيمنة الفلورنسية منذ عام ١٣٨٤م، واستدعى المتمرد أرتيني Aretini فيتلوزو فيتلي الذي كان متاحًا بسهولة والذي كان بمعيته آلاف من الجنود، وعلى الفور استولى قائد المرتزقة على المعاقل في مدينة فال دي تشيانا ثم دخل أريتسو في صورة المحرر كي يتلذذ بالانتقام من قتلة أخيه. ورغم تأكيد بورجيا أنه لم يكن على علم بالمناورات التي أجراها فيتلوزو، فإن معظم أهل فلورنسا رأوا أن الدوق فالنتينو وراء هذه المسألة. لكن الفلورنسيون عجزوا كعادتهم عن التصرف برد فعل رادع.

كان هذا هو المشهد الجاري عند التقاء مكيافيلي والأسقف سودريني وجهًا لوجه مع سيزار بورجيا في قصر الدوقية العظيم في أوربينو. ومع أن بورجيا كان شخصية محتقرة ويخافه الجميع في فلورنسا، فإن مكيافيلي كان يكّن له إعجابًا خاصًّا. فبالرغم من السمعة الشنيعة التي كانت تلاحقه، فقد كان شابًّا نابغة ومثيرًا للإعجاب. أثبت أنه مثال رائع لطالب العلم، وقد تلقى تعليمًا جيدًا

في الجامعة في بيروجيا وفي جامعة مكيافيللي القديمة أي أستوديو فيورنتينو في بيزا. وكان بورجيا طلق اللسان في خمس لغات من بينها اللاتينية واليونانية، مع أنه كان يقضي وقتًا في منزله في ركوب الخيل وفي حلبة مصارعة الثيران — ذبح بورجيا ثمانية ثيران في يوم مشهود في تاريخ روما — أطول من ذلك الذي كان يقضيه في حجرة الدراسة. واستطاع بورجيا أيضًا أن يكسر بيديه العزلاوين حدوة حصان، وكان يمضي وقت فراغه في أوربينو في الصيد بمساعدة الفهود في التلال المحيطة، وفي منافسة الشباب المحليين في سباقات العدو والمصارعة التي كان يفوز بجميعها دائمًا. وكان بورجيا يرتدي حلة من القطيفة السوداء وكثيرًا ما كان يرتدي قناعًا بغرض إضفاء الغموض على نفسه، وأيضًا لكي يداري تشوهات وجهه البشعة من جرّاء إصابته بالزهري.

وكتب مكيافيللي المبهور إلى أعضاء مجلس السيادة فور وصوله إلى أوربينو: «إن هذا الأمير غاية في الروعة والفخامة.» ولم تكن قوة بورجيا ولا مهاراته الرياضية ولا حتى طلاقته في اللاتينية واليونانية هي التي بهرت مكيافيللي؛ إنما بهره منذ البداية عزيمتُه الصلبة وجسارته المدهشة. وأردف مكيافيللي قائلًا: «في وقت الحرب تبدو كافة الأهوال الجسام هينة في ناظريه، وفي سعيه نحو المجد والمكاسب لا يعرف طعمًا للراحة ولا يخشى الأخطار ولا يردعه التعب. إنه يصل إلى وجهته التالية قبل أن يُعرف أنه ترك المكان الذي كان فيه. يحبه جنوده، وقد اجتذب حوله خيرة الرجال في إيطاليا، مما جعله قائدًا منتصرًا وجبارًا.» وكانت أقوال مكيافيللي هذه مثل طلاسم وألغاز بالنسبة لرجال مجلس السيادة الذين كانوا على النقيض تمامًا من الخصال السالف ذكرها، إذ كانوا مترددين ومزعزين، فهم رجال أعمال يفهمون في سعر الصوف وليس في فن الحرب.

وعامل بورجيا الرجلين الممثلين لفلورنسا بنفس القدر من التعالي والازدراء الذي أظهره لهما ملك فرنسا، لقد هدد بتغيير الحكومة الفلورنسية، ولاسيما بإعادة تنصيب بيرو مديتشي، ما لم يتعهد مجلس السيادة باحترام غزواته ويكف عن التدخل في شئونه. كما تناول بورجيا مسألة الستة والثلاثين ألف دوكة التافهة التي أهملت فلورنسا دفعها منذ أمد بعيد، وأنذرهما قائلًا: «إن لم تجعلوني صديقكم، فأنا عدوكم.» انتهى اللقاء المسائي بحثٍّ بورجيا إياهما على إقناع رؤسائهما في فلورنسا بمطالبه الملحة، وقال لهما في تلك الليلة أيضًا: «عجلوا بالقرار.» وفي اليوم التالي سلمهم إنذارًا يفيد بأن الفلورنسيين لديهم مهلة أربعة أيام ليقرروا ما إذا كان بورجيا صديقهم أم عدوهم، وأنهى كلامه قائلًا: «لا يوجد طريق وسط.»

لا بد أن مكيافيللي وهو يمتطي صهوة جواده المسرع في طريق عودته عبر التلال الوعرة كي يخبر مجلس السيادة بمطالب بورجيا؛ كان يدرك تمام الإدراك أن هذا الحل الوسط الذي أطلق عليه اسم «الطريق الأوسط» la via di mezzo هو بالضبط الطريق الذي تفضل حكومته الحذرة أن تطأه. وكما هو متوقع فقد رفض مجلس السيادة أن يرد على مطالب بورجيا الملحة، وفي الأسبوع الأول من يوليو/تموز، أي بعد مضي عدة أيام على انقضاء المهلة، لم تقم الحكومة إلا بإرسال أحد فصحائها المعتادين ذوي البلاغة الجوفاء إلى أوربينو، فاستشاط بورجيا غضبًا فور تسلمه الرد مما حدا بالأسقف سودريني إلى أن يولي الأدبار على الفور من أوربينو لينجو بحياته، بيد أن الأحداث انقلبت سريعًا لصالح فلورنسا. ولا بد وأن أعضاء مجلس السيادة قد توهموا أن إنذار بورجيا شديد اللهجة هو مجرد خدعة، خاصة وأن الملك لويس الثاني عشر من الصعب أن يوافق على غزو فلورنسا التي وقع معها معاهدة قبل بضعة أشهر فحسب. وقد أطلقوا لفظ «خدعة» بأسلوب

تهكمي عندما استولى فيتلوزو فيتلي على مدينة بورجو سان سبولكرو Borgo San Sepolcro التوسكانية التي تقع شمال شرق مدينة أريتسو Arezzo بنحو اثني عشر ميلًا ونهبها، ثم نفذ بعدها مذبحة وحشية في معقل باتيفولي. أثارت هذه الأحداث الاستياء البالغ للويس الثاني عشر، ولهذا فقد أُجبر بورجيا على أن يأمر قائده العسكري الشرير بالخروج من توسكانيا. واضطر فيتلوزو المستشيط غضبًا أن يسحب قواته (وفي تلك الأثناء سرق الأجراس من القلعة)، وبنهاية يوليو/تموز كان يتوعد بالانتقام من بورجيا مثل فلورنسا تمامًا.

ومرت الأزمة بسلام، ونجا الفلورنسيون مرة أخرى من مواجهتهم الثانية مع سيزار بورجيا في مدة لم تتجاوز السنة الواحدة إلا بفترة قليلة. بيد أن هذه التجارب كان لها أثرها على أعضاء مجلس السيادة، وما إن أدركوا مدى الضعف المتأصل في طرق أدائهم لأعمالهم المتمثل في التناوب على المناصب الذي يحدث على جناح السرعة لموظفين ذوي خبرة محدودة للغاية في الشئون السياسية؛ حتى قرروا إجراء إصلاح دستوري مهم، إذ اقترحوا الاستعاضة عن منصب حامل لواء العدالة Gonfalonier — الذي تبلغ مدة شغله للمنصب شهرين فقط — بمنصب جديد أطلقوا عليه «حامل لواء العدالة مدى الحياة» Gonfaloniere a vita، وهو منصب دائم مدى الحياة (مثل منصب القاضي الأول في جمهورية البندقية) مما سيضفي على الجمهورية الاستمرارية والاستقرار، بالإضافة إلى حكمة سياسية نابعة من الخبرة.

وعليه، سُن قانون يستحدث هذا المنصب الجديد في نهاية أغسطس/آب. وبعد مرور أسبوعين، كان أمام المجلس العظيم للشعب أسماء مائتين وستة وثلاثين مرشحًا للمنصب. وكما جرت العادة، نُقلت لوحة المادونا من إمبرونيتا إلى فلورنسا لتقود المصوتين إلى الاختيار

السديد، ثم أجريت عملية التصويت، وفاز بالمنصب أحد رجال الدولة المحنكين يُدعى بيرو سودريني — السفير السابق لفلورنسا في كل من ميلانو وفرنسا. وسودريني البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا هو أخو فرانشيسكو أسقف فولتيرا، المبعوث الذي كان مكيافيللي بمعيته في بعثته إلى أوربينو. وكان فرانشيسكو قد انبهر بمواهب مكيافيللي وبصيرته وشجاعته في غضون بعثتهما الدبلوماسية وقدرها آيما تقدير، إذ كتب بعدها مباشرة عن مكيافيللي — المستشار الثاني: «إنه يفوق الجميع مقدرة.» وسرعان ما سيعتمد بيرو أيضًا على مهارات مكيافيللي، ففي الواقع، لم يمر على بيرو شهر في شغله لمنصبه حتى أرسل مستشاره الثاني في مهمة أخرى. ولما كان جيران سيزار بورجيا ينتظرون في قلق تحركه التالي، لذا أدرك الفلورنسيون أنهم في حاجة إلى شخص ما ليراقب خطواته. ومرة أخرى سنحت الفرصة لمكيافيللي ليراقب الدوق «العظيم» عن كثب.

أقبل مكيافيللي على هذه المهمة الأخيرة بحماس شديد، وقد أمرته الحكومة أن يتحرك في عجالة، لذا أبتدأ مكيافيللي رحلته ووضع أمتعته معه في عربة تجرها الخيول ولكنه سرعان ما ضاق ذرعًا بهذه الكماليات فتركها في سكاربريا التي تبعد نحو خمسة عشر ميلًا خارج فلورنسا، ثم امتطى صهوة جواد ليقطع مسرعًا مسافة الخمسة والعشرين ميلًا المتبقية للوصول إلى إيمولا حيث يوجد بلاط سيزار بورجيا، ووصل في السابع من أكتوبر/تشرين الأول، وقدم نفسه إلى بورجيا وهو لم يزل مرتديًا ثياب السفر.

ثمة تغير حدث في طالع بورجيا مقارنة بالوقت الذي رأه فيه مكيافيللي في أوربينو قبل ثلاثة أشهر، فوجد دوق رومانيا نفسه على حين غرة عرضة للخطر، إذ اجتمع فيتلوزو فيتلي المستاء مع عدد

من قادة المرتزقة الآخرين الذين ساعدوا بورجيا في الاستيلاء على رومانيا — وقد كان من بينهم حاكما بيروجيا وفيرمو — اجتمعوا في بيروجيا لمناقشة كيفية قهر صاحب الأمر والنهي الطموح. وقد نبههم الأسلوب المخادع في خلع جيدوبالدو دا مونتيفيلترو من الحكم إلى مدى خطورة موقفهم، كما أعرب جيانباولو باليوني Gianpaolo Baglioni، حاكم بيروجيا، عن نفس الشيء حينما قال إنهم قد جازفوا «بجعل أنفسهم عرضة للتنين ليبتلعهم واحدًا تلو الآخر.» وبعد يومين من وصول مكيافيللي إلى إيمولا، أي في التاسع من أكتوبر/تشرين الأول، وقع قادة المرتزقة المتمردون معاهدة لشن هجمات على بورجيا في كل من رومانيا وأوربينو في نفس الوقت، إذ كانت أوربينو بالفعل في حالة تمرد ضد حكمه.

وعلى الرغم من توالي كل هذه النكبات، لم يبدُ بورجيا أقل عظمة في عيني مكيافيللي، فقد كتب إلى مجلس العشر أن الدوق «يفوق البشر في شجاعته.» وحينما وجد بورجيا أن ثمة احتمالًا لفقد الأراضي التي كسبها من قبل، بدأ في طلب يد العون من كل من فلورنسا وملك فرنسا. وفي ذات الوقت، بدأ في تجنيد مليشيات من المواطنين لمواجهة فيتلوزو والمرتزقة الآخرين المتمردين، مجندًا رجلًا من كل منزل في القرى الرومانية المحيطة، إلى أن حشد في آخر الأمر جيشًا مؤلفًا من ستة آلاف رجل، وألبسهم زيًّا موحدًا عبارة عن قميص طويل ذي لونين قرمزي وأصفر، ومطرز عليه اسم «سيزار».

وانبهر مكيافيللي بالمليشيات وأيضًا برباطة الجأش التي تعامل بها بورجيا مع أعدائه في الداخل الذين نبذهم واعتبرهم «مجلس الفشلة.» وكتب مكيافيللي إلى مجلس السيادة ليحث حكومته على تعضيد بورجيا ضد هؤلاء الطواغيت الحقراء، فبورجيا — دوق رومانيا — كما كتب عنه مكيافيللي: «ذائع الصيت إلى أقصى حد، وتؤازره إلهة الحظ، ومعتاد

على النصر» — ناهيك عن أنه يحظى بكل من مال البابا وجنود لويس الثاني عشر، واستطرد مكيافيللي معبرًا عن رأيه أنه من صالح فلورنسا ألا تعادي هذه «القوة الجديدة في إيطاليا» بل تصادقها.

وللوهلة الأولى بدا أن الحكومة الفلورنسية سوف تأخذ بهذه النصيحة، ففي الأسبوع الثالث من أكتوبر/تشرين الأول، تلقى مكيافيللي خطابًا من بيرو جوتشيارديني Piero Guicciardini أحد أعضاء مجلس العشر للحرية والسلام، يجزم له أن «ثمة ميلًا بداخل الجميع نحو الموافقة على الصداقة مع سيادته»، ولكن كما هو معتاد فقد كانت الحكومة تستخدم الكلمات المبهمة. وهكذا، قدمت فلورنسا لبورجيا الكثير من الكلمات التشجيعية وأقل القليل من الدعم الحقيقي. وما أثار سخط مكيافيللي هو أن بيرو سودرينى كان شغوفًا أكثر بمعرفة مصائر بعض البغال التي استولى عليها رجال بورجيا من قافلة للبغال كانت في مدينة كاستل دورانتي بالقرب من أوربينو. لقد استبد القلق بسودريني — حامل لواء العدالة — بشأن هذه الحيوانات، حتى إنه كتب إلى مكيافيللي يؤكد عليه بشدة قائلًا: «إنك سوف تناقش مع سعادته بالتحديد أمر البغال الستة التي جرى الاستيلاء عليها، عليك أن تتوسل إليه مرارًا وتكرارًا من أجل استعادتها.»

وطال وقت مكيافيللي بالتدريج في إيمولا حتى نوفمبر/تشرين الثاني، ثم ديسمبر/كانون الأول نظرًا لطول فترة تردد كل من مجلس السيادة من جانب، والمرتزقة المتمردين من جانب آخر الذين لم يظهروا رغبة قوية في القتال. وبالرجوع إلى فلورنسا، نجد القلق بدأ يستبد بزوجة مكيافيللي الشابة، فقد كتب بياجيو بواناكورزي إلى مكيافيللي في أكتوبر/تشرين الأول قائلًا: «لقد كتبت إليّ السيدة ماريتا خطابًا سلمه لي أخوها تسأل فيه عن موعد رجوعك»، وكتب أيضًا يقول: «إنها غاضبة بشدة ومجروحة لأنك وعدتها بأنك لن تغيب أكثر من ثمانية

أيام.» وبحلول ديسمبر/كانون الأول ازدادت غضبًا وحزنًا، فكتب له بياجيو يقول: «السيدة ماريتا تلعن الرب، وتشعر أنها ألقت جسدها وممتلكاتها في مهب الريح.»

أما مكيافيلي فقد كان يتوق إلى موطنه بشدة. فقد ساورته المخاوف مرة أخرى من أن غيابه قد يضع مسألة إعادة انتخابه في المستشارية على المحك. وكذلك شعر بالإحباط مِن كلٍّ مِن تكتم بورجيا وتلكؤ مجلس السيادة. وكان من الجلي أن الملل انتابه من طول أيام السكون والخمول، حتى إنه سأل بياجيو أن يجد له نسخة من كتاب Lives الذي ألفه بلوتارخ Plutarch حتى يقضي وقت فراغه في قراءته. (اعتاد مكيافيلي أن يصطحب معه في سفره بعض الكتب يضعها في حقيبته، وكان الكتاب الذي يقرأه في رحلته الطويلة إلى فرنسا هو كتاب Commentaries on the Gallic and Civil Wars الذي ألفه يوليوس قيصر). وكتب إلى فلورنسا أيضًا يطلب عباءة من القطيفة والدمقس وقبعة جديدة من القطيفة (من الواضح أنه أراد أن يظهر في هيئة أفضل في بلاط بورجيا) إلى جانب قسط من الخمور. وكان مكيافيلي لا يحصل في المقابل إلا على خطابات تافهة أو شديدة اللهجة، فمثلًا كان يرد عليه بياجيو في غضب قائلًا: «اذهب إلى الجحيم» أو «يمكنك أن تذهب إلى الشيطان لتطلب منه كل هذه الأشياء.» وعنفه بياجيو أيضًا في نهاية أكتوبر/تشرين الأول لأن تقاريره كانت تصل بصفة غير منتظمة على نحو لا يروق لمجلس السيادة، قائلًا: «يجب عليّ أن أذكرك بأن تزيد عدد خطاباتك، لأن الفترات الفاصلة بين وصول خطاب وآخر قد تمتد إلى ثمانية أيام، وهذا لا يكون في صالحك ويجلب عليك سخط من أرسلوك إلى بعثتك.» وفي الحقيقة فإن بعضًا من تقارير مكيافيلي كانت تفقد في طريق وصولها بينما يستغرق وصول البعض الآخر عبر الأربعين ميلًا من إيمولا إلى فلورنسا أكثر من أسبوع بسبب

السير المتراخي لسعاة البريد، فعلى سبيل المثال: في إحدى المرات كان بياجيو يشكو في إحباط قائلًا: «لقد استغرق هذا الأحمق توتي ثمانية أيام كاملة في الوصول إلى هنا.» ومع ذلك فلم تكن المستشارية نفسها أكثر فعالية، ففي إحدى المرات، كما ذكر بياجيو صراحة، تأخر وصول وثيقة السفر الخاصة بمكيافيللي إلى إيمولا لأن أحد الموظفين الذي يُدعى أنطونيو ديلا فالي Antonio della Valle قضى يومًا بأكمله في لعب الطاولة في الوقت الذي كان عليه أن يجهز الوثيقة.

وقضى مكيافيللي شهرين في إيمولا، وفي العاشر من ديسمبر/كانون الأول، والأرض مغطاة بالجليد الكثيف؛ غادر بورجيا المدينة مع جيش مكون من خمسة آلاف من جنود المشاة وألف ومائتين من الفرسان، وكانت وجهته الأولى هي تشيزينا التي تبعد قرابة ثلاثين ميلًا نحو الجنوب الشرقي، ولحقه مكيافيللي بعدها بيومين متسائلًا مثل الباقين عما يخطط له بورجيا، وكما اتضح فيما بعد، كانت أولى أعماله هي إحداث انقلاب مفاجئ لمسرح الأحداث مما أذهل مكيافيللي وفتنه مثل الباقين.

كان من المساعدين المقربين إلى بورجيا على مدار العديد من السنوات رجل عابس الوجه ذو لحية سوداء، إسباني الجنسية يُدعى راميرو دي لورقا Ramiro de Lorqua وقد كان يتمتع بسلطات واسعة باعتباره الحاكم العسكري لرومانيا. وكان لراميرو مهابة بين الناس بسبب وحشيته، إلا أنه كان مكروهًا للغاية بسبب قمع أي معارضة تبزغ ضد سيادة بورجيا وإخمادها. وجاءت نهايته على نحو مفاجئ مع انبلاج فجر السادس والعشرين من ديسمبر/تشرين الأول، إذ احتشد أهل تشيزينا في ساحة المدينة كي يروا عطية بورجيا لهم في الكريسماس، فكانت عبارة عن جثة راميرو مقطوعة الرأس وملقاة عارية، والرأس معلقة في رمح، وإلى جانبها كان فأس ومنصة الإعدام

ملطخين بالدماء. وكتب مكيافيللي عن ذلك الحدث لرؤسائه قائلًا: «لا يعرف أحد سبب إعدامه، فيما عدا أن هذا كان يُرضي الأمير الذي أثبت للناس أنه بمقدوره أن يخلق الرجال ويدمرهم حسب مرضاته.»

وما كانت جثة راميرو الدامية إلا مشهدًا افتتاحيًّا، فبعدها في نفس اليوم، شرع بورجيا وجيشه في الانتقال في رحلة إلى سينيغاليا التي تقع على الساحل الأدرياتيكي، حيث كان ينتظره أعداؤه الذين كان من بينهم فيتلوزو فيتلي.